يصنع باليمن وكساء من هذه التي تدعونها الملبدة فقالت قبض رسول الله ﷺ في هذين الثوبين.

قالوا ولو كان الغنى مع الشكر أفضل من الفقر مع الصبر لاختاره رسول الله ﷺ إذ عرضت عليه الدنيا، ولأمره ربه أن يسأله إياه كما أمره أن يسأله زيادة العلم، ولم يكن رسول الله ﷺ ليختار إلا ما اختاره الله له، ولم يكن الله ليختار له إلا الأفضل، إذ كان أفضل خلقه وأكملهم.

قالوا وقد أخبر النبي ﷺ أن خير الرزق ما كان بقدر كفاية العبد فلا يعوزه ما يضره ولا يفضل عنه ما يطغيه ويلهيه.

قال الإمام أحمد: حدثنا ابن مهدي حدثنا همام عن قتادة عن خليد العصري عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنبيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ولا آبت شمس قط إلا بعث بجنبيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: «اللهمَّ أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً».

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا أسامة بن زيد عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي لبيبة عن سعد بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الرزق ما يكفي وخير الذكر الخفي».

وتأمل جمعه في هذا الحديث بين رزق القلب والبدن، ورزق الدنيا والآخرة وإخباره أن خير الرزقين ما لم يتجاوز الحد، فيكفي من الذكر إخفاؤه، فإن زاد على الإخفاء خيف على صاحبه الرياء والتكبر به على الغافلين، وكذلك رزق البدن إذا زاد على الكفاية خيف على صاحبه الطغيان والتكاثر.

قالوا وقد غبط رسول الله ﷺ المتقلل من الدنيا ما لم يغبط به الغني.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا علي بن صالح، عن أبي

المهلب، عن عبيدالله بن زحر، عن علي بن يزيد عن القاسم، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أغبط أوليائي عندي مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة، أحسن عبادة ربه، وكان غامضاً في الناس لا يشار إليه بالأصابع، فعجلت منيته وقلَّ تراثه، وقلَّتْ بواكيه». قال عبدالله بن أحمد: سألت أبي: ما تراثه؟ قال: ميراثه.

قالوا: وحمية الله لعبده المؤمن عن الدنيا إنما هو من محبته له وكرامته. قال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد حدثنا سليمان بن بلال عن عمرو بن أبي عمرو عن عاصم بن عمرو بن قتادة عن محمود بن لبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى يحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مرضاكم الطعام والشراب تخافون عليهم» قالوا وقل أن يقع إعطاء الدنيا وتوسعتها إلا استدراجاً من الله لا إكراماً ومحبة لمن أعطاه.

قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشد بن سعد عن حرملة بن عمران التجيبي عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه وما يحب فإنما هو استدراج» ثم تلا قوله تعالى: ﴿فلما نَسُوا ما ذُكِّرُوا به فتحنَا عليهم أبوابَ كلِّ شيءٍ﴾ الآية [الأنعام: ٤٤]. قالوا ولهوانِ الدنيا على الله منعها أكثر أوليائه وأحبائه.

قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن سالم بن أبي الجعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أمتي لو أتى باب أحدكم فسأله ديناراً لم يعطه إياه، ولو سأله فلساً لم يعطه إياه، ولو سأل الله تعالى الجنة لأعطاها إياه ولو سأله الدنيا لم يعطها إياه وما يمنعها إياه لهوانه عليه ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره». وهذا يدل على أنه إنما يمنعه إياها لهوانها عليه لا لهوانه هو عليه، ولهذا يعطيه أفضل منها وأجل، فإن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الآخرة إلا من يحب.

قالوا وقد أخبرهم النبي ﷺ أن أقربهم منه مجلساً ذوو التقلل من الدنيا الذين لم يستكثروا منها قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا محمد بن عمرو قال سمعت عراك بن مالك يقول: قال أبو ذر: «إني لأقربكم مجلساً من رسول الله ﷺ يوم القيامة، وذلك أني سمعته يقول: إن أقربكم مني مجلساً يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئة ما تركته فيها، وإنه والله ما منكم من أحد إلا وقد تشبث منها بشيء غيري» قالوا وقد غبط النبي ﷺ من كان عيشه كفافاً وأخبر بفلاحه قال الإمام أحمد حدثنا عبدالله بن يزيد حدثنا حيوة قال: أخبرني أبو هانيء أن أبا علي الحبشي أخبره أنه سمع فضالة بن عبيد يقول أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «طوبى لمن هُدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع».

وذكر أيضاً من حديث عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنّعه الله بما آتاه»، قالوا: ولو لم يكن في التقلل إلا خفة الحساب لكفى به فضلاً عن الغنى، قال عبدالله ابن الإمام أحمد حدثنا بيان بن الحكم حدثنا محمد بن حاتم قال حدثني بشر بن الحارث حدثنا عيسى بن يونس عن هشام عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يحاسب بهنَّ العبد: ظل خص يستظل به، وكسرة يشد بها صلبه، وثوب يواري عورته».

وقال الإمام أحمد حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا ليث عن أبي عثمان قال: لما افتتح المسلمون جوجى دخلوا يمشون فيها وأكداس الطعام فيها أمثال الجبال، وكان رجل يمشي إلى جنب سلمان فقال: يا أبا عبدالله ألا ترى إلى ما فتح الله علينا ألا ترى إلى ما أعطانا الله، فقال سلمان: وما يعجبك مما ترى؟ إلى جنب كل جبة مما ترى حساب.

قالوا وقد شهد النبي ﷺ لأصحابه أنهم يوم فقرهم وفاقتهم خيراً منهم يوم غناهم وبسط الدنيا عليهم، قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد أبو الأشهب عن الحسن قال: قال نبي الله ﷺ: «يا أهل الصفة كيف أنتم»

قالوا: نحن بخير، قال أنتم اليوم خير أم يوم تغدو على أحدكم جفنة وتروح أخرى، ويغدو في حلة ويروح في أخرى، وتسترون في بيوتكم مثل أستار الكعبة، قالوا يا نبي الله نحن يومئذٍ خير يعطينا ربنا تبارك وتعالى فنشكر، قال: «بل أنتم اليوم خير» فهذا صريح في أنهم في وقت صبرهم على فقرهم، خير منهم في وقت غناهم مع الشكر.

وقال عبدالله بن أحمد حدثنا ابن ذر حدثنا حفص بن غياث عن داود بن أبي هند عن أبي حرب بن أبي الأسود عن طلحة البصري قال: قدمت المدينة ولم يكن لي بها معرفة، فكان يجري علينا مد من تمر بين اثنين، فصلى بنا رسول الله صلاة فهتف به هاتف من خلفه فقال: «يا رسول الله قد حرق بطوننا التمر، وعزفت عنا الكنف» فخطب فحمد الله وأثنى عليه وقال: «والله لو أجد لكم اللحم والخبز لأطعمتكموه، وليأتين عليكم زمان تغدو على أحدكم الجفان وتراح ولتلبسن بيوتكم مثل أستار الكعبة، قالوا يا رسول الله: نحن اليوم خير هنا أو يومئذٍ؟ قال: بل أنتم اليوم خير منكم يومئذٍ، أنتم اليوم خير منكم يومئذٍ يضرب بعضكم رقاب بعض».

قال الإمام أحمد وحدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ دخل على أهل الصفة فذكر نحوه.

قالوا ولو لم يكن في الغنى والمال إلا أنه فتنة وقل من سلم من إصابتها له وتأثيرها في دينه كما قال تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ [التغابن: ١٥] وفي الترمذي من حديث كعب بن عياض قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال» قال هذا حديث حسن صحيح، قالوا: والمال يدعو إلى النار، والفقر يدعو إلى الجنة. قال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا أبو الأشهب حدثنا سعيد بن أيمن مولى كعب بن سور قال: بينا رسول الله ﷺ يحدث أصحابه إذا رجل من الفقراء فجلس إلى جنب رجل من الأغنياء فكأنَّه قبض من ثيابه عنه، فقال

رسول الله: «أخشيت يا فلان أن يغدو غناك عليه أو يغدو فقره عليك، قال: يا رسول الله أوشر الغنى؟ قال: نعم إن غناك يدعوك إلى النار وإن فقره يدعوه إلى الجنة، قال: فما ينجيني منه؟ قال: تواسيه، قال: إذن أفعل، فقال الآخر: لا إرب لي فيه، قال: فاستغفر وادع لأخيك».

قالوا وحق الغني أعظم من أن يقوم العبد بشكره، وقد روى الترمذي في جامعه من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه وثوب يواري به عورته، وجلف الخبز والماء». قال هذا حديث حسن صحيح. وفي صحيح مسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وأبدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى».

وفي صحيحه أيضاً من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: بينما نحن في سفر مع رسول الله إذ جاء رجل على راحلة له فجعل يضرب يميناً وشمالاً، فقال رسول الله: «من كان معه فضل من ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان عنده فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له، قال فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى ظننا أنه لا حق لأحد منا في فضل».

قالوا فهذا وضع النظر في تفضيل الغني الشاكر ببذل الفضل كله وأما غني يمتع بأنواع الفضل ويشكر بالواجب وبعض المستحب فكيف يفضل على فقير صابر راض عن الله في فقره، قالوا وقد أقسم رسول الله ﷺ لأصحابه وهم أئمة الشاكرين أنه لا يخاف عليهم الفقر، وإنما يخاف عليهم الغنى. ففي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف، وكان شهد بدراً ـ أن رسول الله بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله صالح أهل البحرين وأمَّر عليهم العلاء بن الحضرمي فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة

الفجر مع رسول الله، فلما صلى رسول الله انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله حين رآهم ثم قال: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين؟ فقالوا أجل يا رسول الله، قال أبشروا وأمِّلوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوا فيها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم».

قال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا هشام عن الحسن قال: قيل لأبي ثعلبة الخشني أين دنياكم التي كنتم تعدون يا أصحاب محمد؟ قال: ليبشر الآخر بدنيا قد ظلت تأكل ـ والله الذي لا إله إلا هو ـ الإيمان كما تأكل النار الحطب الجزل» وقال أحمد حدثنا يزيد حدثنا هشام بن حسان قال سمعت الحسن يقول: «والله ما أحد من الناس بسط الله له دنياه فلم يخف أن يكون قد مكر به فيها إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه، وما أمسكها الله عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه».

قالوا وقد مر على النبي ﷺ فقير وغني فقال عن الفقير: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»، وروى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال: «ما تقولون في هذا؟ فقالوا حري إن خطب أن يُنكح وإن شفع أن يشفع وإن قال أن يسمع، قال ثم سكت فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا حري إن خطب أن لا ينكح وإن شفع ألا يشفع وإن قال أن لا يسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: هذا خير من ملء الأرض مثل هذا».

وقد بشر رسول الله ﷺ الفقراء الصابرين بما لم يبشر به الأغنياء، ففي الترمذي من حديث فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة وهم أصحاب الصفة حتى يقول الأعراب: هؤلاء مجانين، فإذا صلى رسول الله انصرف إليهم وقال: «لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة» قال فضالة: وأنا يومئذٍ مع رسول الله ﷺ وبشرهم بسبقهم الأغنياء إلى الجنة.

وقد اختلفت الروايات في مدة هذا السبق، ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر أنه جاء ثلاثة نفر فقالوا: «يا أبا محمد والله ما نقدر على شيء لا نفقة ولا دابة ولا متاع فقال لهم: ما شئتم، إن شئتم رفعتم إلينا فأعطيناكم ما يسر الله لكم، وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان، وإن شئتم صبرتم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفاً قالوا نصبر ولا نسأل شيئاً».

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام» قال الترمذي حديث حسن صحيح، وفي الترمذي أيضاً من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة». وهو حديث حسن. وفيه أيضاً من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً» وهو حديث حسن، وهو موافق لحديث عبدالله بن عمر ولحديث أنس الذي في الترمذي: «إن المساكين يدخلون قبل الأغنياء بأربعين خريفاً.

فهؤلاء ثلاثة: جابر وأنس وعبدالله بن عمر، وقد اتفقوا على الأربعين، وهذا أبو هريرة وأبو سعيد قد اتفقا على التقدير بخمسمائة سنة، ولا تعارض بين هذه الأحاديث إذ التأخر والسبق درجات بحسب الفقر والغنى، فمنهم من يسبق بأربعين ومنهم من يسبق بخمسمائة، ولا يتقيد السبق بهذا المقدار بل يزيد عليه وينقص.

وقد روى أبو داود في سننه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ «أن أول الأمة دخولاً إلى الجنة أبو بكر الصديق رضي الله عنه»، ومعلوم أن المدة التي بينه وبين إخوانه من فقراء المهاجرين لا تطول، وأنها أطول مدة بين دخوله وبين دخول آخر من يدخل الجنة.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده من حديث عبدالله بن عمر رضي

الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، تقول الملائكة: يا ربنا نحن ملائكتك وخزنتك وسكان سماواتك لا تدخلهم الجنة قبلنا، فيقول: عبادي لا يشركون بي شيئاً يتقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فعند ذلك تدخل عليهم الملائكة من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار».

وقال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا دويد عن مسلم بن بشير عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «التقى مؤمنان على باب الجنة، مؤمن غني ومؤمن فقير كانا في الدنيا فأدخل الفقير الجنة وحبس الغني ما شاء الله أن يحبس ثم أدخل الجنة فلقيه الفقير فيقول: أي أخي ماذا حبسك؟ والله لقد احتبست حتى خفت عليك!؟ فيقول أي أخي إني حبست بعدك محبساً فظيعاً كريهاً ما وصلت إليك حتى سال مني من العرق ما لو ورده ألف بعير كلها أكلت حمصاً لصدرت عنه رواء». وقال الطبراني في معجمه حدثنا محمد بن عبدالله الحضرمي وعلي بن سعيد الرازي قالا حدثنا علي بن بهرام العطار حدثنا عبد الملك بن أبي كريمة عن الثوري عن محمد بن زيد عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وذلك خمسمائة سنة، فقال رجل: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال إن تغديت رجعت على عشاء، وإذا تعشيت يبيت معك غداء؟ قال نعم. قال لست منهم، فقام رجل فقال أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال هل سمعت ما قلنا لهذا؟ قال نعم، ولست كذلك. قال هل تجد ثوباً ستيراً سوى ما عليك؟ قال نعم. قال فلست منهم. فقام آخر فقال أمنهم أنا يا رسول الله؟ فقال هل سمعت ما قلت لهذين قبلك؟ قال نعم، قال هل تجد قرضاً كلما شئت أن تستقرض؟ قال نعم. قال فلست منهم، فقام

آخر فقال أمنهم أنا يا رسول الله فقال هل سمعت ما قلت لهؤلاء؟ قال نعم، قال تقدر أن تكتسب؟ قال نعم قال فلست منهم، قال فقام خامس فقال أنا منهم يا رسول الله؟ فقال هل سمعت ما قلت لهؤلاء؟ قال نعم، قال هل تمسي عن ربك راضياً وتصبح كذلك؟ قال نعم، قال فأنت منهم، قال النبي ﷺ إن سادات المؤمنين في الجنة من إذا تغدى لم يجد عشاء وإذا تعشى لم يبت عنده غداء، وإن استقرض لم يجد قرضاً وليس له فضل كسوة إلا ما يواري به ما لا يجد منه بداً، ولا يقدر على أن يكتسب ما يعشيه ويمسي عن الله راضياً ويصبح راضياً ﴿أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ قال الطبراني: هذا حديث غريب من حديث سفيان الثوري عن محمد بن زيد يقال هو العبدي، تفرد به عبد الملك.

قلت: محمد هذا هو العبدي، وثقه قوم وضعفه آخرون، قال الدارقطني ليس بالقوي، وقال أبو حاتم صالح الحديث، وذكره ابن حبان في الثقات، وروى له الترمذي وابن ماجه، وفي هذه الطبقة محمد بن زيد الشامي يروي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وهو متروك ونخاف أن يكون هذا هو. الثوري لم ينسبه وإنما يقال هو العبدي: والله أعلم.

وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا هشام الدستوائي عن يحيى بن أبي كثير عن عامر العقيلي عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: عرض عليَّ أول ثلاثة يدخلون الجنة، وأول ثلاثة يدخلون النار، فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة: فالشهيد، وعبد مملوك لم يشغله رق الدنيا عن طاعة ربه، وفقير متعفف ذو عيال، وأما أول ثلاثة يدخلون النار فأمير مسلط، وذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله في ماله، وفقير فخور، وروى الترمذي منه ذكر الثلاثة الذين يدخلون الجنة فقط.

قالوا ويكفي في فضل الفقير أن عامة أهل الجنة الفقراء، وعامة أهل النار الأغنياء قال الإمام أحمد حدثنا عبدالله بن محمد بن أبي شيبة حدثنا

شريك عن أبي إسحاق عن السائب بن مالك عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء».

وفي صحيح البخاري عن أبي رجاء قال: جاء عمران بن حصين إلى امرأته من عند رسول الله ﷺ فقالت: حدثنا ما سمعت من النبي، فقال: إنه ليس من حديث! فلم تدعه (أو قال) فأغضبته، فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نظرت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، ونظرت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء».

وفي الصحيحين من حديث أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال: «قمت على باب الجنة فإذا عامة من دخلها المساكين، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء» وفي صحيح مسلم عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ اطلع في النار فرأى أكثر أهلها النساء واطلع في الجنة فرأى أكثر أهلها الفقراء».

قالوا ويكفي في فضل الفقر أن كل أحد يتمناه يوم القيامة من الأغنياء قال الإمام أحمد حدثنا عبدالله بن نمير حدثنا إسماعيل ـ يعني ابن خالد ـ عن نفيع عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يوم القيامة غني ولا فقير إلا ود أن ما كان أوتي في الدنيا قوتاً». قال البخاري يتكلمون في نفيع، وهذا أليق ما قيل فيه.

قالوا وقد صرح رسول الله ﷺ في تفضيل الفقراء في غير حديث، فمنها ما تقدم من حديث سهل بن سعد، وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر ارفع بصرك فانظر أرفع رجل تراه في المسجد. قال فنظرت فإذا رجل جالس عليه حلة له، قال فقلت هذا، قال فقال: يا أبا ذر ارفع بصرك فانظر أوضع رجل تراه في المسجد، قال

فنظرت فإذا رجل ضعيف عليه أخلاق، قال فقلت هذا، قال فقال رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لهذا أفضل عندالله يوم القيامة من قراب الأرض من هذا».

قال حدثنا وكيع ووافقه زائد حدثنا الأعمش عن سليمان بن يسار عن خرشة بـن الحر عن أبي ذر فذكره، وقال لهذا خير عند الله يوم القيامة من ملء الأرض مثل هذا. قال الإمام أحمد وحدثنا أبو معاوية ووافقه يعلى قال: حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن أبي ذر فذكره.

قالوا والذي يفضل بيننا في هذه المسألة ويشفي العليل أن الفقر يوفر أجر صاحبه ومنزلته عند الله، والغني ولو شكر فإن ما ناله في الدنيا بغناه يحسب عليه من ثوابه يوم القيامة وإن تناوله بأحل وجه، فقليل الفضل في الدنيا ناقص من كثير الآخرة، وفي صحيح مسلم من حديث عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث، وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم».

وفي الصحيحين عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: هاجرنا مع رسول الله نلتمس وجه الله فوقع أجرنا على الله، فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئاً منهم مصعب بن عمير رضي الله عنه قتل يوم أحد وترك بردة فكنا إذا غطينا بها رأسه بَدَتْ رجلاه، وإذا غطينا رجلاه بدا رأسه، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطي رأسه ونجعل على رجليه شيئاً من الأذخر، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهديها. وفي الصحيحين عن قيس بن أبي حازم قال: «دخلنا على خباب نعوده وقد اكتوى سبع كيات فقال إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولم تنقصهم الدنيا. وذكر الحديث وقال سعيد بن منصور حدثنا معاوية عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «ما أوتي عبد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله وإن كان عليه كريماً».

وفي صحيح البخاري عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: «أتي عبد الرحمن رضي الله عنه بطعام وكان صائماً، فقال قتل مصعب بن عمير وهو خير مني وكفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه، وقتل حمزة رضي الله عنه وهو خير مني فلم يوجد له كفن إلا بردة، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، أو قال أعطينا من الدنيا ما أعطينا، وقد خشيت أن تكون عجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام».

قال أبو سعيد بن الأعرابي: وليس عبد الرحمن بن عوف وخباب قالا ذلك دون غيرهما، لقد قاله الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ وكرهوا ما فتح الله عليهم من الدنيا وأشفقوا منه، وعلموا أن ما اختاره الله لنبيه كان أفضل. وأن ما أخروا له كان أنقص، منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأبو عبيدة وعمار بن ياسر وسلمان وعبدالله بن مسعود وعائشة أم المؤمنين وأبو هاشم بن عتبة، وجماعة لم نذكرهم للاختصار رضي الله عنهم.

فأما أبو بكر رضي الله عنه فحدثنا ابن أبي الدنيا حدثنا عبد الرحمن بن أيان الطائي حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنا عبد الواحد بن زيد حدثني سليمان عن مرة عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «كنا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه فدعا بشراب فأتي بماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى وبكى حتى أبكى أصحابه فسكتوا وما سكت، ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لم يقدروا على مسألته، قال ثم مسح عينيه، فقالوا يا خليفة رسول الله ما أبكاك؟ فقال: كنت مع رسول الله فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً ولم أر معه أحداً، فقلت يا رسول الله ما الذي تدفع عن نفسك؟ قال: هذه الدنيا مثلت لي، فقلت لها إليك عني، ثم رجعت فقالت إنك إن أفلت مني فلن يفلت مني من بعدك.

وذكر ليث عن ابن سعد عن صالح بن كيسان عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه أن أبا بكر رضي الله عنه قال في مرضه الذي

مات فيه: إني ولّيت أمركم وإني لَسْتُ بخيركم وكلكم ورم أنفه من ذلك أن يكون هذا الأمر له وذلك لما رأيت الدنيا قد أقبلت وأقبلت ولم تقبل حتى يتخذوا نضائد الحرير وستور الديباج، وحتى يألم أحدكم من الاضطجاع على الصوف كما يألم من الاضطجاع على الحسك والسعدان، ثم أنتم أول ضال بالناس تصفقون يميناً وشمالاً. ما هذا الطريق أخطأت إنما هو البحر أو الفجر، والله لئن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حد خير له من أن يخوض غمرات الدنيا.

وذكر محمد بن عطاء بن خباب قال: كنت جالساً مع أبي بكر فرأى طائراً فقال طوبي لك يا طائر، تأكل من هذا الشجر ثم تبعر ثم لا تكون شيئاً وليس عليك حساب وددت أني مكانك، فقلت له أتقول هذا وأنت صديق رسول الله ﷺ؟.

وأما عمر رضي الله عنه فإنه لما أتي بكنوز كسرى بكى، فقال له عبد الرحمن بن عوف ما الذي يبكيك يا أمير المؤمنين فوالله إن هذا ليوم شكر ويوم سرور ويوم فرح، فقال عمر إن هذا لم يعطه قوم إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء. ودخل عليه أبو سنان الدؤلي وعنده نفر من المهاجرين، فأرسل عمر إلى سفط أتي به من قلعة بالعراق وكان فيه خاتم فأخذه بعض ولده فأدخله في فيه، فانتزعه عمر منه ثم بكى، فقال له من عنده لم تبكي وقد فتح الله لك وأظهرك وأقر عينك، فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وأنا مشفق من ذلك.

قال أبو سعيد وجدت في كتاب بخط يد، عن أبي داود قال: حدثنا محمد بن عبيد حدثنا حماد حدثنا يونس عن الحسن أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتي بقلنسوة بغزوة كسرى بين يديه وفي القوم سراقة بن مالك فألقى إليه سواري كسرى فجعلهما في يديه فبلغا منكبيه، فلما رآهما في يد سراقة قال الحمد لله سوار كسرى بن هرمز في يد سراقة بن مالك بن جعشم

أعرابي من بني مدلج، ثم قال: اللهم قد علمت أن رسولك قد كان يحب أن يصيب مالاً فينفقه في سبيلك وعلى عبادك فزويت ذلك عنه نظراً منك له واختياراً، اللهم إني أعوذ بك أن يكون هذا مَكْرٌ منك بعمر. ثم قال: ﴿أيحسبونَ أنما نُمِدُّهُم به من مالٍ وبنينَ نُسارعُ لهم في الخيراتِ بل لا يَشعرون﴾ [المؤمنون: ٥٥].

والمقصود أن سعة الدنيا وبسطها تعجيل من أجل الآخرة وتضييق من سعتها، قال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن الزهري عن ابن أبي صغيرة، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، قال: «لما كان يوم أحد أشرف النبي ﷺ على الشهداء الذين قُتلوا يومئذٍ فقال: «إني شهيد على هؤلاء، فزملوهم بدمائهم». قال معمر وأخبره فيمن سمع الحسن يقول: قال النبي ﷺ: «هؤلاء قد مضوا وقد شهدت عليهم، لم يأكلوا من أجورهم شيئاً، وإنكم قد أكلتم من أجوركم، وإني لا أدري ما تحدثون بعدي».

وقال ابن المبارك أخبرنا جرير بن حازم قال: سمعت الحسن يقول: خرج رسول الله ﷺ بأصحابه إلى بقيع الغرقد فقال: «السلام عليكم يا أهل القبور: لو تعلمون ما نجاكم الله منه مما هو كائن بعدكم». ثم أقبل على أصحابه فقال: «هؤلاء خير منكم، فقالوا: يا رسول الله إخواننا، أسلمنا كما أسلموا، وهاجرنا كما هاجروا، وجاهدنا كما جاهدوا، وأتوا على آجالهم فمضوا فيها، وبقينا في آجالنا فما يجعلهم خيراً منا؟ فقال: إن هؤلاء خرجوا من الدنيا ولم يأكلوا من أجورهم شيئاً وخرجوا وأنا شهيد عليهم، وأنتم قد أكلتم من أجوركم ولا أدري ما تحدثون بعدي». قال: فلما سمعها القوم والله عقلوها وانتفعوا بها، فقالوا: وإنا لمحاسبون بما أصبنا من الدنيا بعدهم، وإنه لمنتقص به من أجورنا، فأكلوا طيباً وأنفقوا قصداً وقدموا فضلاً.

وقال عبدالله بن أحمد: قرأت على أبي هذا الحديث: حدّثنا أسود بن

عامر، حدثنا إسرائيل، عن ثوير، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: «ما أعطي رجل من الدنيا إلا نقص من درجته».

قالوا وقد صرح سادات الأغنياء بأنهم ابتلوا بالضراء فصبروا، وابتلوا بالسراء فلم يصبروا، قال ذلك عبد الرحمن وغيره، وكان هذا مصداقاً لما رواه مصعب بن سعد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأنا من فتنة السراء أخوف عليكم من فتنة الضراء، إنكم ابتليتم بالضراء فصبرتم، وإن الدنيا حلوة خضرة».

قالوا: وها هنا قضيتان صادقتان بهما يتبين الفضل، إحداهما أن الأكثرين هم الأقلون. وقد تقدم الدليل عليها بما فيه الكفاية.

وأما الثانية ففي الصحيحين من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: «خرجت ليلة من الليالي فإذا رسول الله ﷺ: يمشي وحده ليس معه إنسان، قال: فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد، فجعلت أمشي في ظل القمر، فالتفت فرآني فقال من هذا؟ قلت: أبو ذر جعلني الله فداك، قال: يا أبا ذر تعال. فمشيت معه ساعة، فقال: إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيراً فنفح فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه، وعمل فيه خيراً». وذكر الحديث.

قالوا: ولو كان الغنى أفضل من الفقر لما حض الله رسوله على الزهد في الدنيا والإعراض عنها، وذم الحرص عليها والرغبة فيها، بل كان ينبغي أن يحض عليها وعلى اكتسابها والإكثار منها، كما حض على اكتساب الفضائل التي بها كمال العبد من العلم والعمل، فلما حض على الزهد فيها والتقلل دل على أن الزاهدين فيها المتقللين منها أفضل الطائفتين، وقد أخبر أنها لو ساوت عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء، وأنها أهون على الله من السخلة الميتة على أهلها، وأن مثلها في الآخرة كمثل ما يعلق بإصبع من أدخل إصبعه في البحر، وأنها ملعونة ملعون ما فيها إلا

ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم، وأنها سجن المؤمنين وجنة الكافرين، وأمر العبد أن يكون فيها كأنه غريب أو عابر سبيل، ويعد نفسه من أهل القبور، وإذا أصبح فلا ينتظر المساء وإذا أمسى فلا ينتظر الصباح، ونهى عن اتخاذ ما يرغب فيها، ولعن عبد الدينار وعبد الدرهم، ودعا عليه بالتعس والانتكاس، وعدم إقالة العثرة بالانتقاش.

وأخبر أنها خضرة حلوة، أي تأخذ العيون بخضرتها والقلوب بحلاوتها، وأمر باتقائها والحذر منها كما يتقي النساء ويحذر منهن، وأخبر أن الحرص عليها وعلى الرياسة والشرف يفسد الدين كإفساد الذئبين الضاريين إذا أرسلا في زريبة غنم أو أشد إفساداً، وأخبر أنه في الدنيا كراكب استظل تحت شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها.

وهذه في الحقيقة حال سكان الدنيا كلهم، ولكن هو ﷺ شهد هذه الحال وعمي عنها بنو الدنيا، ومر بهم وهم يعالجون خصاً لهم قد وهى فقال: «ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك» وأمر بستر على بابه فنزع وقال: إنه يذكرني الدنيا، وأعلم الناس أنه ليس لأحد منهم حق في سوى بيت يسكنه، وثوب يواري عورته، وقوت يقيم صلبه، وأخبر أن الميت يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله، وأخبر أن للمتخوض فيما شاءت نفسه من مال الله بغير حق النار يوم القيامة، وأقسم أنه لا يخاف الفقر على أصحابه وإنما يخاف عليهم الدنيا وتنافسهم فيها وإلهائها لهم، وأخبر أنه ليس لابن آدم من ماله إلا ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فأمضى، وأخبر أن حسب ابن آدم من الدنيا لقيمات يقمن صلبه، فإن لم يقتصر عليه فثلث بطنه لطعامه وثلثه لشرابه وثلثه لنفسه، وفي هذا الحديث الإرشاد إلى صحة القلب والبدن والدين والدنيا.

وأخبر أن غنى العبد فيها عن نفسه لا كثرة عرضه، وسأل الله أن يجعل رزقه فيها قوتاً، وغبط من كان رزقه فيها كفافاً بعد أن هدي للإسلام، وأخبر أن من كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وشتت

عليه شمله، ولم يأته منها إلا ما كتب له، وعرض عليه ربه أن يجعل له بطحاء مكة ذهباً، فقال لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك، وأعلمهم أن من أصبح منهم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا.

وأخبر أن بذل العبد ما فضل عن حاجته خير له، وإمساكه شر له، وأنه لا يلام على الكفاف، ونهى أمته عن أن ينظر أحدهم إلى من هو فوقه في الدنيا، وأمره أن ينظر إلى من هو دونه في الدنيا، وأخبر أنه لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة وضر، مثلها مثل ما يخرج من ابن آدم عند خلائه، وإن كان أوله طيباً لذيذاً فهذا آخره، وأخبر أن عباد الله ليسوا بالمتنعمين فيها، فإن أمامهم دار النعيم فهم لا يرضون بنعيمهم في الدنيا عوضاً من ذلك النعيم.

وأخبر أن نجاة أول هذه الأمة بالزهد واليقين وهلكة آخرها بالبخل وطول الأمل، وكان يقول: لبيك لا عيش إلا عيش الآخرة. وأخبر أنه تعالى إذا أحب عبداً حماه الدنيا كما يحمي الإنسان مريضه من الطعام والشراب. ودخل على عثمان بن مظعون وهو في الموت فأكبَّ عليه يقبله ويقول: رحمك الله يا عثمان! ما أصبت من الدنيا ولا أصابت منك فغبطه بذلك. وكان يقول: الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة في الدنيا تطيل الهموم والحزن، وكان يقول: من جعل الهموم كلها هماً واحداً كفاه الله سائر همومه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك.

وأخبر أنه يؤتي يوم القيامة بأنعم الناس كان في الدنيا. فيقول الله عز وجل: أصبغوه في النار صبغة، ثم يُؤتى به فيقول: يا ابن آدم هل أصبت نعيماً قط؟ هل رأيت قرة عين قط؟ هل أصبت سروراً قط؟ فيقول: لا وعزتك، ثم يقول: ردوه إلى النار، ثم يُؤتى بأشد الناس كان بلاء في الدنيا

وأجهده جهداً، فيقول تبارك وتعالى: أصبغوه في الجنة صبغة، فيصبغ فيها، ثم يُؤتى به فيقول: يا ابن آدم هل رأيت ما تكره قط؟ فيقول: لا وعزتك ما رأيت شيئاً قط أكرهه.

وفي حديث مناجاة موسى الذي رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل، حدثنا عبد الصمد بن معقلٍ، قال: سمعت وهب بن منبه فذكره، وفيه ولا تعجبكما زينته ولا ما مُتع به، ولا تمدان إلى ذلك أعينكما فإنها زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين، وإني لو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة يعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما فعلت، ولكني أرغب بكما عن نعيمها ذلك وأزويه عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي، وقديماً ما خرت لهم في ذلك فإني لأزودهم عن نعيمها ورخائها كما يذود الراعي الشفيق غنمه عن مراعي الهلكة، وإني لأجنبهم سلوتها وعيشها كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغرة، وما ذلك لهوانهم عليَّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالماً موفراً لم تَكْلَمْه[1] الدنيا ولم يُطْغِهِ الهوى.

وأعلم أنه لم يتزين لي العباد بزينة هي أبلغ من الزهد في الدنيا، فإنها زينة المتقين، عليهم منها لباس يعرفون به من السكينة والخشوع، سيماهم في وجوههم من أثر السجود، أولئك أوليائي حقاً، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك وذلل لهم قلبك ولسانك، وذكر الحديث.

وقال أحمد: حدثنا عون بن جابر، قال: سمعت محمد بن داود، عن أبيه، عن وهب قال: قال الحواريون يا عيسى: من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟ قال: الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها، فأماتوا منها ما يخشون أن يميتهم، وتركوا ما علموا أن سيتركهم، فصار استكثارهم منها استقلالاً، وذكرهم إياها فواتاً، وفرحهم

---

(١) لم تكلمْه: لم تجرحه.

بما أصابوا منها حزناً، فما عرضهم من نائلها رفضوه، وما عارضهم من رفعتها بغير الحق وضعوه: خَلِقَتْ[٢] الدنيا عندهم فليسوا يجددونها، وخربت بينهم فليسوا يعمرونها، وماتت في صدورهم فليسوا يحيونها، يهدمونها فيبنون بها آخرتهم ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم، رفضوها فكانوا بها هم الفرحين، ونظروا إلى أهلها صرعى قد خلت بهم المثلات فأحيوا ذكر الموت، وأماتوا ذكر الحياة، يحبون الله ويحبون ذكره، ويستضيؤون بنوره ويصيؤون به، لهم خبر عجيب، وعندهم الخبر العجيب، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وبهم علم الكتاب وبه عملوا، ليسوا يرون نائلاً مع ما نالوا، ولا أماناً دون ما يرجون، ولا خوفاً دون ما يحذرون.

وحدثنا روح، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، قال: قيل لعيسى بن مريم: يا رسول الله: لو اتخذت حماراً تركبه لحاجتك؟ قال: أنا أكرم على الله من أن يجعل لي شيئاً يشغلني به، وقال: اجعلوا كنوزكم في السماء، فإن قلب المرء عند كنزه، وقال: اتقوا فضول الدنيا، فإن فضول الدنيا عند الله رجز. وقال: يا بني إسرائيل اجعلوا بيوتكم كمنازل الأضياف فما لكم في العالم من منزل إن أنتم إلا عابري سبيل. وقال: يا معشر الحواريين أيكم يستطيع أن يبني على موج البحر داراً؟ قالوا يا روح الله: من يقدر على ذلك؟ قال: إياكم والدنيا فلا تتخذوها قراراً، وقال: أكل الخبز البر، وشرب ماء عذب، ونوم على المزابل مع الكلاب كثير لمن يريد أن يرث الفردوس.

قال أحمد: وحدثنا بهز، عن الأعمش، عن خيثمة قال: قال المسيح بشدة: ما يدخل الغني الجنة. وقال المسيح: حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، ومرارة الدنيا حلاوة الآخرة. وقال: يا بني إسرائيل تهاونوا بالدنيا تهن عليكم، وأهينوا الدنيا تكرم عليكم الآخرة، ولا تكرموا الدنيا تهن عليكم

(٢) خَلِقَتْ: بليَتْ.

الآخرة، فإن الدنيا ليست بأهل الكرامة وكل يوم تدعو إلى الفتنة والخسارة.

وقال إسحاق بن هانىء في مسائله: قال أبو عبدالله ـ وأنا أخرج من داره ـ قال الحسن: أهينوا الدنيا فوالله لأهنأ ما تكون حين تهان، وقال الحسن: والله ما أبالي شرقت أم غربت. قال: وقال لي أبو عبدالله: يا إسحق: ما أهون الدنيا على الله عز وجل، وقال: الدنيا قليلها يجزي وكثيرها لا يجري.

قالوا وقد تواتر عن السلف أن حب الدنيا رأس الخطايا وأصلها، وقد روي فيه حديث مرفوع لا يثبت، ولكنه يروى عن المسيح، قال عبدالله بن أحمد: حدثنا عبيدالله بن عمر القواريري حدثنا معاذ بن هشام حدثني أبي عن بديل بن ميسرة قال حدثني جعفر بن خرفاش أن عيسى بن مريم عليه السلام قال: رأس الخطيئة حب الدنيا، والنساء حبالة الشيطان، والخمر جماع كل شر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عمر بن سعد أبو داود الخفري عن سفيان قال: كان عيسى بن مريم يقول: حب الدنيا أصل كل خطيئة، والمال فيه داء كثير. قالوا وما داؤه؟ قال: لا يسلم من الفخر والخيلاء، قالوا فإن سلم؟ قال يشغله إصلاحه عن ذكر الله عز وجل، قالوا وذلك معلوم بالتجربة والمشاهدة، فإن حبها يدعو إلى خطيئة ظاهرة وباطنة، ولا سيما خطيئة يتوقف تحصيلها عليها فيُسكر عاشقَها حبُّها عن علمه بتلك الخطيئة وقبحها، وعن كراهتها واجتنابها، وحبها يوقع في الشبهات ثم في المكروهات ثم في المحرمات، وطالما أوقع في الكفر، بل جميع الأمم المكذبة لأنبيائهم إنما حملهم على كفرهم وهلاكهم حب الدنيا، فإن الرسل لما نهوهم عن الشرك والمعاصي التي كانوا يكسبون بها الدنيا حملهم حبها على مخالفتهم وتكذيبهم، فكل خطيئة في العالم أصلها حب الدنيا، ولا تنسى خطيئة الأبوين قديماً، فإنما كان سببها حب الخلود في الدنيا، ولا تنسى ذنب إبليس وسببه حب الرياسة التي محبتها شر من محبة الدنيا، وبسببها كفر

فرعون وهامان وجنودهما، وأبو جهل وقومه واليهود، فحب الدنيا والرياسة هو الذي عمر النار بأهلها، والزهد في الدنيا والرياسة هو الذي عمر الجنة بأهلها، والسكر بحب الدنيا أعظم من السكر بشرب الخمر بكثير، وصاحب هذا السكر لا يفيق منه إلا في ظلمة اللحد، ولو انكشف عنه غطاؤه في الدنيا لعلم ما كان فيه من السكر وأنه أشد من سكر الخمر، والدنيا تسحر العقول أعظم سحر.

قال الإمام أحمد حدثنا سيار حدثنا جعفر قال: سمعت مالك بن دينار يقول: اتقوا السحارة، اتقوا السحارة، فإنها تسحر قلوب العلماء.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: الدنيا خمر الشيطان من سكر منها فلا يفيق إلا في عسكر الموتى نادماً بين الخاسرين، وأقل ما في حبها أنه يلهي عن حب الله وذكره، ومن ألهاه ماله عن ذكر الله فهو من الخاسرين، وإذا ألهاه القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان وصرفه حيث أراد، ومن فقهه في الشر أنه يرضيه ببعض أعمال الخير ليريه أنه يفعل فيها الخير وقد تعبد لها قلبه فأين يقع ما يفعله من البر مع تعبده لها وقد لعنه رسول الله ﷺ ودعا عليه فقال: لعن عبد الدينار والدرهم، وقال تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، إن أعطي رضي وإن منع سخط، وهذا تفسير منه ﷺ وبيان لعبوديتها، وقد عرضت الدنيا على النبي ﷺ بحذافيرها وتعرضت له فدفع في صدرها باليدين وردها على عقبيها؟ ثم عرضت بعده على أصحابه وتعرضت لهم، فمنهم من سَلَكَ سبيله ودفعها عنه وهم القليل، ومنهم من استعرضها وقال ما فيك؟ قالت في الحلال والشبهة والمكروه والحرام، فقالوا: هاتي حلالك ولا حاجة لنا فيما عداه، فأخذوا حلالها، ثم تعرضت لمن بعدهم فطلبوا حلالها فلم يجدوه، فطلبوا مكروهها وشبهها، فقالت: قد أخذه من قبلكم فقالوا: هاتي حرامك فأخذوه، فطلبه من بعدهم فقالت هو في أيدي الظلمة قد استأثروا به عليكم فتحيلوا على تحصيله منهم بالرغبة والرهبة، فلا يمد فاجر يده إلى شيء من الحرام إلا وجد أفجر منه وأقوى

قد سبقه إليه، هذا وكلهم ضيوف وما بأيديهم عارية. كما قال ابن مسعود رضي الله عنه ما أصبح أحد في الدنيا إلا ضيف وماله عارية. فالضيف مرتحل والعارية مؤداة.

قالوا وإنما كان حب الدنيا رأس الخطايا ومفسداً للدين من وجوه: أحدها أن حبها يقتضي تعظيمها وهي حقيرة عند الله ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقر الله، وثانيها أن الله لعنها ومقتها وأبغضها إلا ما كان له فيها، ومن أحب ما لعنه الله ومقته وأبغضه فقد تعرض للفتنة ومقته وغضبه، وثالثها أنه إذا أحبها صيرها غايته وتوسل إليها بالأعمال التي جعلها الله وسائل إليه وإلى الدار الآخرة، فعكس الأمر وقلب الحكمة فانعكس قلبه وانعكس سيره إلى وراء، فها هنا أمران: أحدهما جعل الوسيلة غاية، والثاني التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا. وهذا شر معكوس من كل وجه، وقلب منكوس غاية الانتكاس، وهذا هو الذي انطبق عليه حذو القذة بالقذة وقوله تعالى: ﴿مَنْ كانَ يُريد الحياةَ الدنيا وزينَتَها. نُوَفِّ إليهم أعمالَهم فيها وهم فيها لا يُبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرةِ إلا النَّار وحَبطَ ما صَنعوا فيها وباطلٌ ما كانُوا يَعملون﴾ [هود: ١٥] وقوله تعالى: ﴿مَنْ كانَ يُريد العاجلةَ عَجَّلْنَا له فيها ما نشاءُ لمن نُريد، ثم جعلنا له جهنَّم يَصْلاَها مذموماً مَدْحُوراً﴾ [الإسراء: ١٨] وقوله تعالى: ﴿مَنْ كانَ يُريد حَرْثَ الآخرةِ نَزِدْ له في حرثِهِ ومن كانَ يُريد حَرْثَ الدنيا نؤتِه منها وما له في الآخرةِ من نَصيب﴾ [الشورى: ٢٠] فهذه ثلاث آيات يشبه بعضها بعضاً، وتدل على معنى واحد، وهو أن من أراد بعمله الدنيا وزينتها دون الله والدار الآخرة فحظه ما أراد، وهو نصيبه ليس له نصيب غيره.

والأحاديث عن رسول الله ﷺ مطابقة لذلك مفسرة له، كحديث أبي هريرة رضي الله عنه في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار: الغازي والمتصدق والقارىء الذين أرادوا بذلك الدنيا والنصيب، وهو في صحيح مسلم.

وفي سنن النسائي عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: رجل غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: لا شيء له، فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله لا شيء له، ثم قال: إن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصاً، وابتغى به وجهه، فهذا قد بطل أجره وحبط عمله مع أنه قصد حصول الأجر لما ضم إليه قصد الذكر بين الناس فلم يخلص عمله لله فبطل كله.

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رجلاً قال: «يا رسول الله الرجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرض الدنيا، فقال له رسول الله ﷺ: لا أجر له. فأعظم الناس ذلك، وقالوا: للرجل عد لرسول الله ﷺ لعلَّه لم يفهم، فعاد فقال: يا رسول الله الرجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرض الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: لا أجر له، ثم أعاد الثالثة، فقال رسول الله: لا أجر له».

وفي المسند أيضاً وسنن النسائي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «من غزا في سبيل الله عز وجل وهو لا ينوي في غزاته إلا عقالاً فله ما نوى».

وفي المسند والسنن عن يعلى بن منبه قال: كان رسول الله ﷺ يبعثني في سرايا فبعثني ذات يوم في سرية وكان رجلاً يركب بغلاً فقلت له: ارحل فإن النبي ﷺ قد بعثني في سرية، فقال: ما أنا بخارج معك حتى تجعل لي ثلاثة دنانير ففعلت، فلما رجعت من غزاتي ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال النبي: «ليس له من غزاته هذه ومن دنياه وآخرته إلا ثلاثة دنانير».

وفي سنن أبي داود أن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله أخبرني عن الجهاد والغزو، فقال يا عبدالله بن عمر: إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً، وإن قاتلت مرائياً مكاثراً، بعثك الله مرائياً مكاثراً يا عبدالله بن عمر على أي حال قاتلت أو قتلت بعثك الله على تلك الحال.

وفي المسند أو السنن عن أبي أيوب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنها ستفتح عليكم الأمصار، وتضربون فيها بعوثاً، فيكره الرجل منكم البعث، فيخلص من قومه ويعرض نفسه على القبائل، يقول: من أكفيه بعث كذا وكذا إلا وذلك الأجير إلى آخر قطرة من دمه، فانظر محبة الدنيا ماذا حرمت هذا المجاهد من الأجر وأفسدت عليه عمله وجعلته أول الداخلين إلى النار.

فصل: ورابعها أن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه في الآخرة لاشتغاله عنه بمحبوبه والناس ها هنا مراتب: فمنهم من يشغله محبوبه عن الإيمان وشرائعه، ومنهم من يشغله عن الواجبات التي تجب عليه لله ولخلقه فلا يقوم بها ظاهراً ولا باطناً، ومنهم من يشغله حبها عن كثير من الواجبات، ومنهم من يشغله حُبُّها عن واجب يعارض تحصيلها وإن قام بغيره، ومنهم من يشغله عن القيام بالواجب في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي، فيفرط في وقته وفي حقوقه، ومنهم من يشغله عن عبودية قلبه في الواجب وتفريغه لله عند آدائه فيؤديه ظاهراً لا باطناً، وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيها، هذا من أندرهم وأقل درجات حبها أن يشغل عن سعادة العبد، وهو تفريغ القلب لحب الله ولسانه لذكره، وجمع قلبه على لسانه، وجمع لسانه وقلبه على ربه، فعشقها ومحبتها تضر بالآخرة ولا بد، كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا وفي هذا حديث قد رُوي مرفوعاً: من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى.

فصل: وخامسها أن محبتها تجعلها أَكْثَرَ هَمِّ العبد، وقد روى الترمذي من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت الآخرة أكبر همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ومن كانت الدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له».

فصل: وسادسها أن محبها أشد الناس عذاباً بها وهو معذب في دوره الثلاث: يعذب في الدنيا بتحصيلها والسعي فيها ومنازعة أهلها، وفي دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها، وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبداً ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه. فهذا أشد الناس عذاباً في قبره، يعمل الهم والغم والحزن والحسرة في روحه ما تعمل الديدان وهوامّ الأرض في جسمه كما قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم حدثنا عبد الصمد بن معقل عن وهب بن منبه أن حزقيل كان فيمن سبى بختنصر فذكر عنه حديثاً طويلاً وفي آخره قال: فبينا أنا نائم على شط الفرات إذ أتاني ملك فأخذ برأسي فاحتملني حتى وضعني بقاع من الأرض، قد كانت معركة، قال: وإذا فيه عشرة آلاف قتيل قد بددت الطير والسباع لحومهم وفرقت أوصالهم، قال لي: إن قوماً يزعمون أن من مات منهم أو قتل فقد انفلت مني وذهبت عنه قدرتي فادْعهم! قال حزقيل فدعوتهم فإذا كل عظم قد أقبل إلى مفصله الذي انقطع منه، ما الرجل بصاحبه بأعرف من العظم بمفصله الذي فارق حتى أم بعضها بعظائم نبت عليها اللحم ثم نبت عليها العروق ثم انبسطت الجلود وأنا أنظر إلى ذلك، ثم قال ادع أرواحهم! قال فدعوتها فإذا كل روح قد أقبل إلى جسده الذي فارق فلما جلسوا سألتهم فيم كنتم؟ قالوا: إنا لما متنا وفارقنا الحياة لقينا ملك فقال، هلموا أعمالكم وخذوا أجوركم كذلك سنتنا فيكم وفيمن كان قبلكم وفيمن هو كائن بعدكم، قال فنظر في أعمالنا فوجدنا نعبد الأوثان فسلط الدود على أجسادنا وجعلت الأرواح تألمه، وسلط الغم على أرواحنا وجعلت أجسادنا تألمه، فلم نزل كذلك نعذب حتى دعوتنا، ولا يستريح عاشق الدنيا. فقولهم كنا نعبد الأوثان، فسيان عبادة الأثمان وعبادة الأوثان، تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم.

والمقصود أن محب الدنيا يعذب في قبره ويعذب يوم لقاء ربه. قال تعالى: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، إنما يريد الله ليعذبهم بها في

الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ [التوبة: ٥٥] قال بعض السلف يعذبهم بجمعها وتزهق أنفسهم بحبها؛ وهم كافرون بمنع حق الله فيها.

فصل: وسابعها أن عاشقها ومحبها الذي يؤثرها على الآخرة من أسفه الخلق وأقلهم عقلاً؛ إذ آثر الخيال على الحقيقة، والمنام على اليقظة، والظل الزائل على النعيم الدائم، والدار الفانية على الدار الباقية، وباع حياة الأبد في أرغد عيش بحياة إنما هي أحلام نوم أو كظل زائل، إن اللبيب بمثلها لا يخدع كما نزل أعرابي بقوم فقدموا له طعاماً فأكل ثم قام إلى ظل خيمة فنام فاقتلعوا الخيمة فأصابته فانتبه وهو يقول:

وإن امـرؤٌ دنيـاه أكبـرُ همِّـهِ ... لمستمسـكٌ منهـا بحبـل غـرور

وكان بعض السلف يتمثل بهذا البيت:

يا أهلَ لذاتِ دنيا لا بقاءَ لها ... إن اغتـراراً بـظلٍّ زائـلٍ حمق

قال يونس بن عبد الأعلى: ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب، فبينما هو كذلك انتبه، وقال ابن أبي الدنيا: حدثني أبو علي الطائي حدثنا عبد الرحمن البخاري عن ليث قال: رأى عيسى بن مريم الدنيا في صورة عجوز عليها من كل زينة، فقال كم تزوّجتِ؟ قالت لا أحصيهم، قال فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك؟ قالت بل كلهم قتلته. فقال عيسى بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين تهلكينهم واحداً واحداً ولا يكونوا منك على حذر.

أرى أشقياءَ النَّاس لا يسأمُونَها ... عـلى أنهم فيهـا عـراةٌ وجـوَّعُ
أراهَـا وإن كـانتْ تُحَبُّ فـإنَّها ... سحابةُ صيفٍ عن قليل تقشَّعُ

أشبه الأشياء بالدنيا الظل، تحسب له حقيقة ثابتة وهو في تقلص وانقباض إن تتبعْته فلا تلحقه، وأشبه الأشياء بها السراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه، والله سريع الحساب، وأشبه الأشياء بها المنام يرى فيه العبد ما يحب وما يكره، فإذا

استيقظ علم أن ذلك لا حقيقة له، وأشبه الأشياء بها عجوز شوهاء قبيحة المنظر والمخبر، غدارة بالأزواج تزينت للخطّاب بكل زينة وسترت كل قبيح، فاغتر بها من لم يجاوز بصره ظاهرها فطلب النكاح، فقالت: لا مهر إلّا نقد الآخرة فإننا ضرتان واجتماعنا غير مأذون فيه ولا مستباح، فآثر الخطّاب العاجلة وقالوا ما على من واصل حبيبته من جناح، فلما كشف قناعها وحل إزارها، إذا كل آفة وبلية فمنهم من طلق واستراح، ومنهم من اختار المقام، فما استتمت ليلة عرسه إلّا بالعويل والصياح.

تالله لقد أذن مؤذنها على رموس الخلائق بحي على غير الفلاح، فقام المجتهدون والمسلمون لها فواصلوا في طلبها الغدو بالرواح، وسروا ليلهم فلم يحمد القوم السرى عند الصباح، طاروا في صيدها فما رجع أحد منهم إلا وهو مكسور الجناح، فوقعوا في شبكتها فأسلمتهم للذباح.

قال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن علي بن شقيق حدثنا إبراهيم بن الأشعث قال : سمعت الفضيل بن عياض قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية مشوه خلقها، فتشرف على الخلائق فيقال أتعرفون هذه فيقولون نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال هذه الدنيا التي تشاجرتم عليها وبها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ثم يقذف بها في جهنم فتنادي: يا رب أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول الله عز وجل: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها.

قال ابن أبي الدنيا وحدثنا إسحق بن إسماعيل حدثنا روح بن عبادة حدثنا عوف عن أبي العلاء قال: رأيت في النوم عجوزاً كبيرة عليها من كل زينة الدنيا والناس عكوف عليها متعجبون ينظرون إليها، فجئت فنظرت فتعجبت من نظرهم إليها وإقبالهم عليها، فقلت لها: ويلك من أنت؟ قالت: أما تعرفني؟ قلت لا، قالت أنا الدنيا، قال قلت أعوذ بالله من شَرِّكِ، قالت فإن أحببت أن تعاذ من شري فأبغض الدرهم.

قال ابن أبي الدنيا وحدثني إبراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا سفيان بن عيينة قال: قال لي أبو بكر بن عياش: رأيت الدنيا في النوم عجوزاً مشوهةً شمطاء تصفق بيديها وخلفها خلق يتبعونها ويصفقون ويرقصون، فلما كانت بحذائي أقبلت عليَّ فقالت لو ظفرت بك صنعت بك ما صنعت بهؤلاء، ثم بكى أبو بكر. قال: وحدثنا محمد بن علي: حدثنا إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل قال: بلغني أن رجلاً عرج بروحه قال: فإذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة الحلي والثياب، وإذا هي لا يمر بها أحد إلا جرحته، وإذا هي أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس، وإذا أقبلت أقبح شيء عجوز شمطاء زرقاء عمشاء، فقلت أعوذ بالله، قالت لا والله لا يعيذك الله حتى تبغض الدرهم، قال قلت من أنت؟ قالت أنا الدنيا.

ووصف علي رضي الله عنه الدنيا فقال: دار من صح فيها هرم، ومن سقم فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها فتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها النار. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له.

وذكر ابن أبي الدنيا أن الحسن كتب إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة وإنما أنزل آدم إليها عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين فإن الزاد منها تركها، والغَناء فيها فقرها، لها في كل حال قتيل، تذل من أعزها وتفقر من جمعها، هي كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه، فكن فيها كمداو جرحاته يحتمي قليلاً مخافة ما يكره طويلاً، ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء. فاحذر هذه الدار الغرَّارة الخيَّالة الخدَّاعة التي قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها وخيلت بآمالها وشوقت لخطابها، فأصبحت كالعروس المجلوة، فالعيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قاتلة، فلا الباقي بالماضي معتبر، ولا الآخر بالأول مزدجر، والعارف بالله حين أخبره عنها مذكر،

فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسي المعاد فشغل فيها لبه حتى زلت عنها قدمه، فعظمت ندامته، وكبرت حسرته، واجتمع عليه سكرات الموت وأله، وحسرات الفوت ونغصه، فذهب منها في كمد، ولم يدرك منها ما طلب، ولم يرح نفسه من التعب فخرج بغير زاد، وقدم على غير مهاد، فاحذرها يا أمير المؤمنين. وأسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه، السار فيها غذاء ضار، وقد وصل الرخاء منها بالبلاء، وجعل البقاء فيها إلى فناء، فسرورها مشوب بالحزن ما يرجع منها ما ولى فأدبر، ولا يدري ما هو آت فينتظر، أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، فلو كان الخالق لها لم يخبر عنها خبراً، ولم يضرب لها مثلاً لكانت قد أيقظت النائم ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر، وفيها واعظ، فما لها عند الله عز وجل قدر ولا وزن وما نظر إليها منذ خلقها، ولقد عرضت على نبينا ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لا تنقصه عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها، وكره أن يحب ما أبغض الله خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه، فزواها عن الصالحين اختياراً، وبسطها لأعدائه اغتراراً، فيظن المغرور بها القادر عليها أنه أكرم بها، ونسى ما صنع الله بمحمد ﷺ حين شد الحجر على بطنه.

وقال الحسن أيضاً: ابن آدم لا تعلق قلبك في الدنيا فتعلقه بشر معلق، اقطع حبالها وغلّق أبوابها، حسبك يا ابن آدم منها ما يبلغك المحل، وكان يقول: إن قوماً أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب، فأهينوها، فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها، هيهات هيهات، ذهبت الدنيا وبقيت الأعمال قلائد في الأعناق.

وقال المسيح عليه السلام: لا تتخذوا الدنيا رباً فتتخذكم عبيداً، واعبروها ولا تعمروها، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا، ورب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً، ما سكنت الدنيا في قلب عبد إلا التاط

قلبه منها بثلاثة: شغل لا ينفك عناؤه، وفقر لا يدرك غناؤه، وأمل لا يدرك منتهاه، الدنيا طالبة مطلوبة، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت فيأخذ بعنقه، يا معشر الحواريين! ارضوا بدَنيّ الدنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدنيا بدنيّ الدين مع سلامة الدنيا.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا هرون بن عبدالله، حدثنا سيار، حدثنا جعفر، حدثنا مالك بن دينار قال: قال أبو هريرة رضي الله عنه: الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله تعالى إلى يوم يفنيها تنادي ربها: يا ربِّ لم تبغضني؟ فيقول: اسكتي يا لا شيء، اسكتي يا لا شيء، وقال الفضيل: تجيء الدنيا يوم القيامة فتتبختر في زينتها ونضرتها فتقول: يا رب اجعلني لأحسن عبادك داراً فيقول: لا أرضاك له، أنت لا شيء فكوني هباءً منثوراً.

فصل: في ذكر أمثلة تبين حقيقة الدنيا

المثال الأول: للعبد ثلاثة أحوال: حالة لم يكن فيها شيئاً وهي ما قبل أن يوجد، وحالة أخرى وهي من ساعة موته إلى ما لا نهاية له في البقاء السرمدي، فلنفسه وجود بعد خروجها من البدن إما في الجنة وإما في النار، ثم تعاد إلى بدنه فيجازى بعمله ويسكن إحدى الدارين في خلودٍ دائم، ثم بين هاتين الحالتين وهي ما بعد وجوده وما قبل موته حالة متوسطة وهي أيام حياته، فلينظر إلى مقدار زمانها وأنسبه إلى الحالتين يعلم أنه أقل من طرفة عين في مقدار عمر الدنيا، ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها، ولم يبال كيف تقضت أيامه فيها في ضر وضيق أو في سعة ورفاهية، ولهذا لم يضع رسول الله ﷺ لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، وقال: «مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب قالَ في ظل شجرة ثم راح وتركها». وقال: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع». وإلى هذا أشار المسيح عليه السلام بقوله: «الدنيا

قنطرة فاعبروها ولا تعمروها» وهذا مثل صحيح، فإن الحياة معبر إلى الآخرة؛ والمهد هو الركن الأول للقنطرة، واللحد هو الركن الثاني على آخرها، ومن الناس من قطع نصف القنطرة ومنهم من قطع ثلثيها ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها، وكيفما كان لا بد من العبور، فمن وقف يبني على القنطرة ويزينها بأصناف الزينة وهو يستحث العبور فهو في غاية الجهل والحمق.

المثال الثاني: شهوات الدنيا في القلب كشهوات الأطعمة في المعدة وسوف يجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا انتهت في المعدة غايتها، وكما أن الأطعمة كلما كانت ألذ طعماً وأكثر دسماً وأكثر حلاوة كان رجيعها أقذر، فكذلك كل شهوة كانت في النفس ألذ وأقوى فالتأذي بها عند الموت أشد كما أن تفجع الإنسان بمحبوبه إذا فقده يقوى بقدر محبة المحبوب.

وفي المسند: أن النبي ﷺ قال للضحاك بن سفيان: ألست تؤتى بطعامك وقد مُلِّح ثم تشرب عليه الماء واللبن؟ قال: بلى، قال: فإلام يصير؟ قال إلى ما قد علمت. قال: فإن الله عز وجل ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم». كان بعض السلف يقول لأصحابه: انطلقوا حتى أريكم الدنيا، فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم..

المثال الثالث: لها ولأهلها في اشتغالهم بنعيمها عن الآخرة، وما يعقبهم من الحسرات، مثل أهلها في غفلتهم، مثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى جزيرة، فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة، وحذرهم الإبطاء، وخوفهم مرور السفينة، فتفرقوا في نواحي الجزيرة فقضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة فصادف المكان خالياً فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمراده، ووقف بعضهم في الجزيرة ينظر إلى أزهارها وأنوارها العجيبة، ويسمع نغمات طيورها، ويعجبه حسن أحجارها ثم حدثته نفسه بفوت

السفينة وسرعة مرورها وخطر ذهابها، فلم يصادف إلا مكاناً ضيقاً فجلس فيه، وأكب بعضهم على تلك الحجارة المستحسنة والأزهار الفائقة فحمل منها حمله، فلما جاء لم يجد في السفينة إلا مكاناً ضعيفاً وزاده حمله ضيقاً، فصار محموله ثقلاً عليه ووبالاً، ولم يقدر على نبذه، بل لم يجد من حمله بداً ولم يجد له في السفينة موضعاً، فحمله على عنقه وندم على أخذه فلم تنفعه الندامة، ثم ذبلت الأزهار وتغيرت أراييحها وآذاه نتنها، وتولغ بعضهم في تلك الغياض ونسي السفينة وأبعد في نزهته، حتى أن الملاح نادى بالناس عند دفع السفينة فلم يبلغه صوته لاشتغاله بملاهيه، فهو تارة يتناول من الثمر، وتارة يشم تلك الأنوار، وتارة يعجب من حسن الأشجار، وهو على ذلك خائف من سبع يخرج عليه غير منفك من شوك يتشبث في ثيابه ويدخل في قدميه، أو غصن يجرح بدنه، أو عوسج يخرق ثيابه ويهتك عورته، أو صوت هائل يفزعه، ثم من هؤلاء من لحق السفينة ولم يبق فيها موضع فمات على الساحل، ومنهم من شغله لهوه فافترسته السباع ونهشته الحيات، ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك، فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة، ونسيانهم موردهم وعاقبة أمرهم، وما أقبح بالعاقل أن تغره أحجار ونبات يصير هشيماً، قد شغل باله وعوقه عن نجاته ولم يصحبه.

المثال الرابع: لاغترار الناس بالدنيا وضعف إيمانهم بالآخرة: قال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا روح بن عبادة، حدثنا هشام ابن حسان عن الحسن قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء، حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أم ما بقي أنفدوا الزاد وخسروا الظهر وبقوا بين ظهراني المفازة، لا زاد ولا حمولة فأيقنوا بالهلكة، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلة يقطر رأسه، فقالوا: إن هذا قريب عهد بريف، وما جاءكم هذا إلا من قريب، فلما انتهى إليهم قال: يا هؤلاء! علام أنتم؟ قالوا على

ما ترى! قال أرأيتم إن هديتكم على ماء رواء ورياض خضر، ما تجعلون لي؟ قالوا: لا نعصيك شيئاً، قال: عهودكم ومواثيقكم بالله، قال: فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً، قال: فأوردهم ماء ورياضاً خضراء. قال: فمكث فيهم ما شاء الله ثم قال: يا هؤلاء! الرحيل! قالوا إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم ورياض ليست كرياضكم! قال: فقال جل القوم وهم أكثرهم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده، وما نصنع بعيش هو خير من هذا؟ قال: وقالت طائفة وهم أقلهم: ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لا تعصونه شيئاً، وقد صدقكم في أول حديثه فوالله ليصدقنكم في آخره، فراح بمن اتّبعه وتخلف بقيتهم، فبادرهم عدوهم فأصبحوا بين أسير وقتيل.

المثال الخامس: للدنيا وأهلها ما مثلها به النبي ﷺ كظل شجرة، والمرء مسافر فيها إلى الله، فاستظل في ظل تلك الشجرة في يوم صائف ثم راح وتركها، فتأمل حسن هذا المثال ومطابقته للواقع سواء، فإنها في خضرتها كشجرة، وفي سرعة انقضائها وقبضها شيئاً فشيئاً كالظل، والعبد مسافر إلى ربه، والمسافر إذا رأى شجرة في يوم صائف لا يحسن به أن يبني تحتها داراً ولا يتخذها قراراً، بل يستظل بها بقدر الحاجة، ومتى زاد على ذلك انقطع عن الرفاق.

المثال السادس: تمثيله لها ﷺ بمدخل أصبعه في اليم، فالذي يرجع به أصبعه من البحر هو مثل الدنيا بالنسبة إلى الآخرة، وهذا أيضاً من أحسن الأمثال فإن الدنيا منقطعة فانية، ولو كانت مدتها أكثر مما هي، والآخرة أبدية لا انقطاع لها، ولا نسبة للمحصور إلى غير المحصور، بل لو فرض أن السموات والأرض مملوءتان خردلاً وبعد كل ألف سنة طائر ينقل خردلة لفني الخردل والآخرة لا تفنى، فنسبة الدنيا إلى الآخرة في التمثيل كنسبة خردلة واحدة إلى ذلك الخردل، ولهذا لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر، وأشجار الأرض كلها أقلام يكتب بها كلام الله، لنفدت الأبحر

والأقلام ولم تنفد كلمات الله، لأنها لا بداية لها، ولا نهاية لها، والأبحر والأقلام متناهية.

قال الإمام أحمد وغيره: لم يزل الله متكلماً إذا شاء وكماله المقدس مقتض لكلامه، والكمال من لوازم ذاته فلا يكون إلا كاملاً، والمتكلم أكمل ممن لا يتكلم، وهو سبحانه لم يلحقه كلل ولا تعب ولا سآمة من الكلام، وهو يخلق ويدبر خلقه بكلماته، فكلماته هي التي أوجد بها خلقه وأمره، وذلك حقيقة ملكه وربوبيته، وهو لا يكون إلا رباً ملكاً إلهاً لا إله إلا هو، والمقصود أن الدنيا نفس من أنفاس الآخرة، وساعة من ساعاتها.

المثال السابع: ما مثَّلها به ﷺ في الحديث المتفق على صحته من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ فخطب الناس فقال: «لا والله ما أخشى عليكم إلا ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا. فقال رجل: يا رسول الله: أو يأتي الخير بالشر؟ فصمت رسول الله ﷺ ثم قال: كيف قلتَ؟ قالَ: يا رسول الله: أو يأتي الخير بالشر؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الخير لا يأتي إلا بالخير، وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم، إلا آكلة الخضر أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشمس فثلطت[1] وبالت، ثم اجترت فعادت فأكلت، فمن أخذ مالاً بحقه بورك فيه، ومن أخذ مالاً بغير حقه فمثله كمثل الذي يأكل ولا يشبع». فأخبر ﷺ أنه إنما يخاف عليهم الدنيا، وسماها زهرة، فشبهها بالزهر في طيب رائحته وحسن منظره وقلة بقائه، وأن وراءه ثمراً خيراً وأبقى منه.

وقوله: إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم، هذا من أحسن التمثيل المتضمن للتحذير من الدنيا والانهماك عليها والمسرة فيها، وذلك أن الماشية يروقها نبت الربيع فتأكل منها بأعينها فربما هلكت حبطاً، والحبط

---

(١) في النهاية «الثلط» الرجع الرفيق، وأكثر ما يقال للإبل والبقر والفيلة.

انتفاخ بطن الدابة من الامتلاء أو من المرض، يقال حبط الرجل والدابة تحبط حبطاً: إذا أصابه ذلك.

ولما أصاب الحارث بن مازن بن عمرو بن تميم ذلك في سفره فمات حبطاً، فنسب الحبطي كما يقال السلمي، فكذلك الشَّرِهُ في المال يقتله شرهه وحرصه، فإن لم يقتله قارب أن يقتله، وهو قوله: أو يلم. وكثير من أرباب الأموال إنما قتلتهم أموالهم فإنهم شرهوا في جمعها واحتاج إليها غيرهم، فلم يصلوا إليها إلا بقتلهم أو ما يقاربه من إذلالهم وقهرهم.

وقوله: إلا آكلة الخضر، هذا تمثيل لمن أخذ من الدنيا حاجته، مثله بالشاة الآكلة من الخضر بقدر حاجتها، أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها، وفي لفظ آخر: «امتدت خاصرتاها» وإنما تمتد من امتلائها من الطعام، وثنَّى الخاصرتين لأنهما جانبا البطن، وفي قوله: استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثلاث فوائد: إحداها: أنها لما أخذت حاجتها من المرعى تركته وبركت مستقبلة الشمس لتستمرىء بذلك ما أكلته. الثانية: أنها أعرضت عما يضرها من الشره في المرعى وأقبلت على ما ينفعها من استقبال الشمس التي يحصل لها بحرارتها إنضاج ما أكلته وإخراجه. الثالثة: أنها استفرغت بالبول والثلط ما جمعته من المرعى في بطنها فاستراحت بإخراجه، ولو بقي فيها لقتلها، فكذلك جامع المال مصلحته أن يفعل به كما فعلت هذه الشاة.

وأول الحديث: مَثل الشرِه في جمع الدنيا الحريص على تحصيلها، فمثاله مثال للدابة التي حملها شره الأكل على أن يقتلها حبطاً أو يلم إذا لم يقتلها، فإن الشَّرِهَ الحريص إما هالك وإما قريب من الهلاك، فإن الربيع ينبت أنواع البقول والعشب فتستكثر منه الدابة حتى ينتفخ بطنها لما جاوزت حد الاحتمال فتنشق أمعاؤها وتهلك، كذلك الذي يجمع الدنيا من غير حلها، ويحبسها أو يصرفها في غير حقها، وآخر الحديث مثل للمقتصد بآكلة الخضر الذي تنتفع الدابة بأكله، ولم يحملها شرهها وحرصها على تناولها منه

فوق ما تحتمله، بل أكلت بقدر حاجتها وهكذا. وهذا أخذ ما يحتاج إليه ثم أقبل على ما ينفعه، وضرب بول الدابة وثلطها مثلاً لإخراجه المال في حقه حيث يكون حبسه وإمساكه مضراً به فنجا من وبال جمعه بأخذ قدر حاجته منه، ونجا من وبال إمساكه بإخراجه كما نجت الدابة من الهلاك بالبول والثلط.

وفي هذا الحديث إشارة إلى الاعتدال والتوسط بين الشره في المرعى القاتل بكثرته، وبين الإعراض عنه وتركه بالكلية فتهلك جوعاً، وتضمن الخبر أيضاً إرشاد المكثر من المال إلى ما يحفظ عليه قوته وصحته في بدنه وقلبه، وهو الإخراج منه وإنفاقه ولا يحبسه فيضره حبسه. وبالله التوفيق.

المثال الثامن: ما رواه عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن سليمان بن يسار عن ميمونة، قالت: قال رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص: «الدنيا خضرة حلوة، فمن اتقى الله فيها وأصلح، وإلا فهو كالآكل ولا يشبع، وبين الناس في ذلك كبعد الكوكبين أحدهما يطلع في المشرق والآخر يغيب في المغرب». فنبّه بخضرتها على استحسان العيون لها، وبحلاوتها على استجلاء الصدور لها، وبتلك الخضرة والحلاوة زينت لأهلها وحببت إليهم، لا سيما وهم مخلوقون منها وفيها كما قيل:

ونحنُ بنو الدنيا ومنها نباتُنا وما أنتَ منه فهو شيءٌ مُحَبَّبُ

وجعل الناس فيها قسمين: أحدهما مصلح متقي، فهذا تقواه وإصلاحه لا يدعانه ينهمك عليها ويشره فيها ويأخذها من غير حلها ويضعها في غير حقها، فإن لم يتق ويصلح صرف نهمته وقواه وحرصه إلى تحصيلها، فكان كالذي يأكل ولا يشبع، وهذا من أحسن الأمثلة، فإن المقصود من الأكل حفظ الصحة والقوة، وذلك تابع لقدر الحاجة، وليس المقصود منه ذاته ونفسه، فمن جعل نَهَمَهُ فوق مقصوده لم يشبع، ولهذا قال الإمام أحمد: «الدنيا قليلها يجزي وكثيرها لا يجزي»، وأخبر عن تفاوت الناس في المنزلتين ـ أعني منزلة التقوى والإصلاح، ومنزلة الأكل

والشره ـ وأن بين الرجلين في ذلك كما بين الكوكبين الغارب في الأفق والطالع منه، وبين ذلك منازل متفاوتة.

المثال التاسع: ما تقدم من حديث المستورد بن شداد قال: كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة، فقال رسول ﷺ: «أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها! قالوا: ومن هوانها ألقوها يا رسول الله، قال: فوالذي نفس محمد بيده للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها». قال الترمذي: حديث حسن صحيح، فلم يقتصر ﷺ على تمثيلها بالسخلة الميتة بل جعلها أهون على الله منها.

وفي مسند الإمام أحمد في هذا الحديث: فو الذي نفسي بيده للدنيا عند الله أهون عليه من تلك السخلة على أهلها، فأكد ذلك بالقسم الصادق، فإذا كان مثلها عند الله أهون وأحقر من سخلة ميتة على أهلها، فمحبها وعاشقها أهون على الله من تلك السخلة، وكونها سخلة أهون عليهم من كونها شاة كبيرة، لأن تلك ربما انتفعوا بصوفها أو دبغوا جلدها، وأما ولد شاة صغيرة ميت ففي غاية الهوان. والله المستعان.

المثال العاشر: مثلها مثل البحر الذي لا بد للخلق كلهم من ركوبه ليقطعوه إلى الساحل الذي فيه دورهم وأوطانهم ومستقرهم ولا يمكن قطعه إلا في سفينة النجاة، فأرسل الله رسله لتعرف الأمم اتخاذ سفن النجاة وتأمرهم بعملها وركوبها، وهي طاعة رسله، وعبادته وحده، وإخلاص العمل له والتشمير للآخرة وإرادتها والسعي لها سعيها، فنهض الموفقون وركبوا السفينة، ورغبوا عن حوض البحر لما علموا أنه لا يقطع خوضاً ولا سباحةً، وأما الحمقى فاستصعبوا عمل السفينة وآلاتها والركوب فيها، وقالوا: نخوض البحر، فإذا عجزنا قطعناه سباحة وهم أهل الدنيا فخاضوه، فلما عجزوا عن الخوض أخذوا في السباحة حتى أدركهم الغرق ونجا أصحاب السفينة كما نجوا مع نوح عليه السلام، وغرق أهل الأرض، فتأمل هذا المثل وحال أهل الدنيا فيها يتبين لك مطابقته للواقع،

وقد ضرب هذا المثل للدنيا والآخرة والقدر والأمر، فإن القدر بحر والأمر فيه سفينة لا ينجو إلا من ركبها.

المثال الحادي عشر: مثالها مثال إناء مملوء عسلاً رآه الذباب فأقبل نحوه، فبعضه قعد على حافة الإناء وجعل يتناول من العسل حتى أخذ حاجته ثم طار، وبعضه حمله الشره على أن رمى بنفسه في لجة الإناء ووسطه فلم يدعه انغماسه فيه أن يتهنأ به إلا قليلاً حتى هلك في وسطه.

المثال الثاني عشر: مثال حَبٍ قد نُثر على وجه الأرض، وجعلت كل حبة في فخ وجعل حول ذلك الحب حب ليس في فخاخ، فجاءت الطير، فمنها من قنع بالجوانب ولم يرم نفسه في وسط الحب فأخذ حاجته ومضى، ومنها من حمله الشره على اقتحام معظم الحب، فما استتم اللقاط إلا وهو يصيح من أَخْذ الفخ له.

المثال الثالث عشر: كمثل رجل أوقد ناراً عظيمةً فجعلت الفَراش والجنادب يرون ضوءها فيقصدونها ويتهافتون فيها، ومن له علم بحالها جعل يستضيء ويستدفيء بها من بعيد، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المثل بعينه في الحديث الذي رواه مالك بن إسماعيل عن حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إني ممسك بحُجزكم عن النار وتتقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب، ويُوشك أن أرسل بحجزكم». وفي لفظ آخر: «مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعلت الفراش والجنادب يتقاحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تغلبوني وتقاحمون فيها». وهذا المثال منطبق على أهل الدنيا المنهمكين فيها فالرسل تدعوهم إلى الآخرة وهم يتقاحمون في الدنيا تقاحم الفراش.

المثال الرابع عشر: مثل قوم خرجوا في سفر بأموالهم وأهليهم فمروا بواد مُعْشِب كثير المياه والفواكه فنزلوا به وضربوا خيمهم، وبنوا هنالك الدور والقصور، فمر بهم رجل يعرفون نصحه وصدقه وأمانته، فقال: إني

رأيت بعيني هاتين الجيش خلف هذا الوادي وهو قاصدكم، فاتبعوني أسلك لكم على غير طريق العدو فتنجوا منه، فأطاعته طائفة قليلة، فصاح فيهم: يا قوم النجاة النجاة أُتيتم أُتيتم، وصاح السامعون له بأهليهم وأولادهم وعشائرهم، فقالوا: كيف نرحل من هذا الوادي وفيه مواشينا وأموالنا ودورنا وقد استوطناه؟! فقال لهم الناصح: لينج كل واحد منكم بنفسه مما خف عليه من متاعه وإلا فهو مأخوذ وماله مجتاح، فثقل على أصحاب الجد والأموال ورؤساء القوم النقلة ومفارقة ما هم فيه من النعيم والرفاهية والدعة، وقال كل أحمق: لي أسوة بالقاعدين، فهم أكثر مني مالاً وأهلاً، فما أصابهم أصابني معهم، ونهض الأقلون مع الناصح ففازوا بالنجاة، وصبَّحَ الجيشُ أهل الوادي فقتلهم واجتاح أموالهم.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المثل بعينه في الحديث المتفق على صحته من حديث أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني وأنا النذير العريان فالنجاة النجاة، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق».

المثال الخامس عشر: رجل هيّأ داراً وزينها ووضع فيها من جميع الآلات ودعا الناس إليها، فكلما دخل داخل أجلسه على فراش وثير، وقدم إليه طبقاً من ذهب عليه لحم، ووضع بين يديه أوان مفتخرة فيها من كل ما يحتاج إليه، وأخدمه عبيده ومماليكه، فعرف العاقل أن ذلك كله متاع صاحب الدار وملكه وعبيده فاستمتع بتلك الآلات والضيافة مدة منامه في الدار، ولم يعلق قلبه بها ولا حدث نفسه بتملكها، بل اعتمد مع صاحب الدار ما يعتمده الضيف، يجلس حيث أجلسه، ويأكل ما قدمه له ولا يسأل عما وراء ذلك اكتفاء منه بعلم صاحب الدار وكرمه، وما يفعله مع ضيوفه،

فدخل الدار كريماً وتمتع فيها كريماً، وفارقها كريماً، ورب الدار غير ذام له، وأما الأحمق فحدث نفسه بسكنى الدار وحوز تلك الآلات إلى ملكه وتصرفه فيها بحسب شهوته وإرادته، فتخير المجلس لنفسه، وجعل ينقل تلك الآلات إلى مكان في الدار يخبؤها فيه، وكلما قدم إليه ربها شيئاً أو آلة حدث نفسه بملكه واختصاصه به عن سائر الأضياف، ورب الدار يشاهد ما يصنع، وكرمه يمنعه من إخراجه من داره حتى إذا ظن أنه استبد بتلك الآلات وملك الدار وتصرف فيها وفي آلاتها تصرف المالك الحقيقي، واستوطنها واتخذها داراً له، أرسل إليه مالكها عبيده فأخرجوه منها إخراجاً عنيفاً، وسلبوه كل ما هو فيه، ولم يصحبه من تلك الآلات شيء، وحصل على مقت رب الدار وافتضاحه عنده وبين مماليكه وحشمه وخدمه.

فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل فإنه مطابق للحقيقة والله المستعان.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: كل أحد في هذه الدنيا ضيف وماله عارية، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة.

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مات ابن لأبي طلحة من أم سليم، فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة حتى أكون أنا فأحدثه، فجاء فقربت إليه عشاء فأكل وشرب، وقال: ثم تصنعتْ له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب. قالت يا أبا طلحة: أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال لا: قالت: فاحتسب ابنك، قال فغضب، قال تركتيني تلطخت ثم أخبرتيني بابني، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان منها، فقال رسول الله ﷺ بارك الله لكما في ليلتكما. وذكر الحديث.

المثال السادس عشر: قوم سلكوا مفازة ففاجأهم العطش، فانتهو إلى البحر وماؤه أمر شيء وأملحه، فلشدة عطشهم لم يجدوا مرارته وملوحته

فشربوا منه فلم يَرْوُوا وجعلوا كلما ازدادوا شرباً ازدادوا ظمأً، حتى تقطعت أمعاؤهم وماتوا عطشاً، وعلم عقلاؤهم أنه مُرٌّ مالح وأنه كلما ازداد الشارب منه ازداد ظمأه، فتباعدوا عنه مسافة حتى وجدوا أرضاً حلوة، فحفروا فيها قليباً فنبع لهم ماء عذب فرات، فشربوا وعجنوا وطبخوا ونادوا إخوانهم الذين على حافة البحر هلموا إلى ماء الفرات، وكان منهم المستهزىء ومنهم المعرض الراضي بما هو فيه وكان المجيب واحداً بعد واحد، وهذا المثل بعينه قد ضربه المسيح عليه السلام فقال: مثل طالب الدنيا كمثل شارب البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله.

المثال السابع عشر: مثل الإنسان ومثل ماله وعمله وعشيرته مثل رجل له ثلاثة إخوة فقضى له سفر بعيد طويل لا بد له منه، فدعا إخوته الثلاثة وقال: قد حضر ما ترون من هذا السفر الطويل وأحوج ما كنت إليكم الآن، فقال أحدهم: أنا كنت أخاك إلى هذه الحال، ومن الآن فلست بأخ ولا صاحب وما عندي غير هذا، فقال له: لم تغن عني شيئاً، فقال للآخر ما عندك؟ فقال كنت أخاك وصاحبك إلى الآن وأنا معك حتى أجهزك إلى سفرك وتركب راحلتك ومن هنالك لست لك بصاحب، فقال له: أنا محتاج إلى مرافقتك في مسيري، فقال لا سبيل لك إلى ذلك، فقال لم تغن عني شيئاً، فقال للثالث ما عندك أنت؟ فقال كنت صاحبك في صحتك ومرضك وأنا صاحبك الآن، وصاحبك إذا ركبت راحلتك، وصاحبك في مسيرك، فإن سرتَ سرت معك، وإن نزلت نزلت معك، وإذا وصلت إلى بلدك كنت صاحبك فيها لا أفارقك أبداً، فقال إن كنت لأهون الأصحاب علي، وكنت أوثر عليك صاحبيك، فليتني عرفت حقك وآثرتك عليهما.

فالأول ماله، والثاني أقاربه وعشيرته وأصحابه، والثالث عمله، وقد رُوي في هذا المثل بعينه حديث مرفوع لكنه لا يثبت، رواه أبو جعفر العقيلي في كتاب الضعفاء من حديث ابن شهاب عن عروة عن عائشة،

وعن ابن المسيب عن عائشة مرفوعاً، وهو مثل صحيح في نفسه مطابق للواقع.

المثال الثامن عشر: وهو من أحسن الأمثلة: ملك بنى داراً لم ير الراؤون ولم يسمع السامعون أحسن ولا أوسع ولا أجمع لكل ملاذ النفوس منها، ونصب لها طريقاً وبعث داعياً يدعو الناس إليها، وأقعد على الطريق امرأة جميلة قد زينت بأنواع الزينة، وألبست أنواع الحلي والحلل وممر الناس كلهم عليها وجعل لها أعواناً وخدماً تحت يدها ويد أعوانها زاداً للمارين السائرين إلى الملك في تلك الطريق، وقال لها ولأعوانها: من غض طرفه عنك ولم يشتغل بك عني وابتغى منك زاداً يوصله إلي فاخدميه وزوديه، ولا تعوقيه عن سفره إليَّ بل أعينيه بكل ما يبلغه في سفره ومن مد إليك عينيه ورضي بك وآثرك عليَّ. وطلب وصالك فسوِّميه سوء العذاب وأوليه غاية الهوان، واستخدميه واجعليه يركض خلفك ركض الوحش، ومن يأكل منك فاخدعيه به قليلاً ثم استرديه منه واسلبيه إياه كله، وسلِّطي عليه أتباعك وعبيدك، وكلما بالغ في محبتك وتعظيمك وإكرامك فقابليه بأمثاله قلى وإهانة وهجراً حتى تنقطع نفسه عليك حسرات، فتأمل هذا المثال وحال خُطّاب الدنيا وخُطّاب الآخرة والله المستعان؛ وهذا المثل مأخوذ من الأثر المروي عن الله عز وجل: يا دنيا اخدمي من خدمني واستخدمي من خدمك.

المثال التاسع عشر: ملك خط مدينة في أصلح المواضع وأحسنها هواء وأكثرها مياهاً، وشق أنهارها وغرس أشجارها، وقال لرعيته تسابقوا إلى أحسن الأماكن فيها، فمن سبق إلى مكان فهو له، ومن تخلف سبقه الناس إلى المدينة فأخذوا منازلهم وتبوؤوا مساكنهم فيها وبقي من أصحاب الحسرات، ونصب لهم ميدان السباق وجعل على الميدان شجرة كبيرة لها ظل مديد وتحتها مياه جارية، وفي الشجرة من كل أنواع الفواكه، وعليها طيور عجيبة الأصوات، وقال لهم: لا تغتروا بهذه الشجرة وظلها، فعن قليل تجتث من أصلها،

ويذهب ظلّها، وينقطع ثمرها وتموت أطيارها، وأمّا مدينة الملك فأكلها دائم وظلها مديد، ونعيمها سرمدي، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فسمع الناس بها فخرجوا في طلبها على وجوههم، فمروا بتلك الشجرة على أثر تعب ونصب وحر وظمأ، فنزلوا كلهم تحتها واستظلوا بظلها وذاقوا حلاوة ثمرها وسمعوا نغمات أطيارها، فقيل لهم إنما نزلتم تحتها لتحموا أنفسكم وتضمروا مراكبكم للسباق، فتهيؤوا للركوب، وكونوا على أهبة، فإذا صاح النفير استدركتم حلبة السباق، فقال الأكثرون: كيف ندع هذا الظل الظليل والماء السلسبيل، والفاكهة النضجة والدعة والراحة ونقتحم هذه الحلبة في الحر والغبار والتعب والنصب والسفر البعيد والمفاوز المعطشة التي تنقطع فيها الأمعاء، وكيف نبيع النقد الحاضر بالنسيئة الغائبة إلى الأجل البعيد، ونترك ما نراه إلى ما لا نراه، وذرة منقودة في اليد أولى من ذرة موعودة بعد غد، خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به، ونحن بنو اليوم، وهذا عيش حاضر كيف نتركه لعيش غائب في بلد بعيد لا ندري متى نصل إليه، ونهض من كل ألف واحد وقالوا: والله ما مقامنا هذا في ظل زائل تحت شجرة قد دنا قلعها وانقطاع ثمرها وموت أطيارها، ونترك المسابقة إلى الظل الظليل الذي لا يزول والعيش الهنيء الذي لا ينقطع إلا من أعجز العجز، وهل يليق بالمسافر إذا استراح تحت ظل أن يضرب خباءه عليه ويتخذه وطنه خشية التأذي بالحر والبرد، وهل هذا إلا أسفه السفه، فالسباق السباق والبدار البدار.

حكم المنية في البريّةِ جاري ... ما هذه الدنيا بدارِ قرارِ
اقضوا مآربَكم سِراعاً إنما ... أعمارُكم سَفَرٌ من الأسفارِ
وتراكضُوا خَيْلَ السباق وبادروا ... أن تُسْتَرَدَّ فإنهنَّ عَواري
ودعوا الإقامةَ تحتَ ظلِّ زائلٍ ... أنتمْ على سفرٍ بهذي الدارِ
من يَرْجُو طيبَ العيشِ فيها إنما ... يبني الرجاءَ على شفيرِ هارِ
والعيشُ كلُّ العيشِ بعدَ فِرَاقها ... في دارِ أهلِ السَّبْقِ أكرمِ دارِ

فاقتحموا حلقة السباق ولم يستوحشوا من قلة الرفاق وساروا في ظهور العزائم ولم تأخذهم في سيرهم لومة لائم، والمتخلف في ظل الشجرة نائم، فوالله ما كان إلا قليل حتى ذوت أغصان تلك الشجرة وتساقطت أوراقها وانقطع ثمرها ويبست فروعها، وانقطع مشربها فقلعها قيِّمها من أصلها، فأصبح أهلها في حر السموم يتقلبون، وعلى ما فاتهم من العيش في ظلها يتحسرون، أحرقها قيِّمها فصارت هي وما حولها ناراً تلظّى، وأحاطت النار بمن تحتها فلم يستطع أحد منهم الخروج منها، فقالوا: أين الركب الذين استظلوا معنا تحت ظلها ثم راحوا وتركوه، فقيل لهم: ارفعوا أبصاركم تروا منازلهم، فرأوهم من البعد في قصور مدينة الملك وغرفها يتمتعون بأنواع اللذات فتضاعفت عليهم الحسرات ألا يكونوا معهم وزاد تضاعفها بأن حيل بينهم وبين ما يشتهون، وقيل هذا جزاء المتخلفين ﴿وما ظلمنَاهُم ولكنْ كانُوا أنفسَهُم يَظلمون﴾ [النحل: ١١٨].

المثال العشرون: ما مثلها به النبي ﷺ من الثوب الذي شق وبقي معلقاً بخيط في آخره فما بقاء ذلك الخيط؟ قال ابن أبي الدنيا حدثني الفضل بن جعفر حدثنا وهب بن حباد حدثنا يحيى بن سعيد القطان حدثنا أبو سعيد خلف بن حبيب عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقي معلقاً بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع».

وإن أردت لهذا المثل زيادة إيضاح فانظر إلى ما رواه أحمد في مسنده من حديث أبي نظرة عن أبي سعيد قال: صلى بنا رسول الله ﷺ العصر نهاراً، ثم قام فخطبنا فلم يترك شيئاً قبل قيام الساعة إلا أخبر به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، وجعل الناس يلتفتون إلى الشمس هل بقي منها شيء، فقال: ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه.

وروى حفص بن غياث عن ليث عن المغيرة بن حكيم عن ابن عمر

قال: خرج علينا رسول الله ﷺ والشمس على أطراف السعف، فقال: «ما بقي من الدنيا إلا مثل ما بقي من يومنا هذا فيما مضى منه».

وروى ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن سعد حدثنا موسى بن خلف عن قتادة عن أنس أن رسول الله ﷺ خطب عند مغرب الشمس فقال: «ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه».

فالدنيا كلها كيوم واحد بُعث رسول الله ﷺ في آخره قبل غروب شمسه بيسير، وقال جابر وأبو هريرة رضي الله عنهما عنه ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين، وقرن بين أصابعه السبابة والوسطى». وكان بعض السلف يقول: تصبروا فإنما هي أيام قلائل وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت، وإنه قد نعيت إليكم أنفسكم والموت حبس لا بد منه والله بالمرصاد، وإنما تخرج هذه النفوس على آخر سورة الواقعة[1].

المثال الحادي والعشرون: مثال الدنيا كحوض كبير مُلِيء ماء، وجُعل مورداً للأنام والأنعام، فجعل الحوض ينقص على كثرة الوارد حتى لم يبق منه إلا كدر في أسفله، قد بالت فيه الدواب، وخاضته الناس والأنعام. كما روى مسلم في صحيحه عن عتبة بن غزوان، أنه خطبهم فقال في خطبته: إن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حِذَاء، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون عنها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم. وقال عبدالله بن مسعود: إن الله تعالى جعل الدنيا كلها قليلاً، فما بقي منها إلا قليل من قليل. ومثل ما بقي منها كالثغب شرب صفوه وبقي كدره ـ الثغب: الغدير.

المثال الثاني والعشرون: قوم سكنوا مدينة مدة من الزمان فكثرت

---

(١) قال تعالى: ﴿فأمَّا إنْ كان من المُقَرَّبينَ. فروحٌ ورَيْحَانٌ وجنّةُ نعيم. وأمَّا إنْ كانَ من أصحابِ اليمين. فسَلامٌ لكَ من أصحاب اليمين، وأما إنْ كانَ من المُكَذِّبينَ الضَّالِّينَ. فنُزُلٌ من حَميمٍ. وتَصْلِيةُ جحيم﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٩٤].

فيها الأحداث والآفات وطَرَقَتْهَا المحن، وأغارت عليها عساكر الجور والفساد فبنى ملكهم مدينة في محل لا يطرقه آفة ولا عاهة، وعزم على تخريب المدينة الأولى، فأرسل إلى سكانها فنودي فيهم بالرحيل بعد ثلاث، ولا يتخلف منهم أحد، وأمرهم أن ينقلوا إلى مدينة الملك الثانية خير ما في تلك المدينة وأنفعه وأجله من الجواهر واللآلىء والذهب والفضة، وما خفَّ حمله من المتاع وعظم قدره وصلح للملوك، وأرسل إليهم الأدلاّء وآلات النقل، ونهج لهم الطريق ونصب لهم الأعلام، وتابع الرسل يستحثونهم، بعضهم في إثر بعض، فانقسموا فرقاً، فالأقلون علموا قصر مدة مقامهم في تلك المدينة، وتيقنوا أنهم إن لم يبادروا بتحصيل خير ما فيها وحمله إلى مدينة الملك، وإلا فاتهم ذلك فلم يقدروا عليه، فرأوا غبناً أن يقطعوا تلك المدة في جمع المفضول والاشتغال به عن الفاضل، فسألوا عن خير ما في المدينة وأنفسه وأحبه إلى الملك وأنفعه في مدينته، فلما عرفوه لم يلتفتوا إلى ما دونه، ورأوا أن أحدهم إذا وافى بجوهرة عظيمة كانت أحب إلى الملك من أن يوافيه بأحمال كثيرة من الفلوس والحديد ونحوها، فكان همهم في تحصيل ما هو أحب إلى الملك وأنفس عنده ولو قل في رأي الذين خالفوهم، وأقبلت فرقة أخرى على تعبئة الأحمال المحملة، وتنافسوا في كثرتها وهم على مراتب: فمنهم من أحماله أثمان، ومنهم من أحماله دون ذلك على قدر هممهم وما يليق بهم، لكن هممهم مصروفة إلى تعبئة الأحمال والانتقال من المدينة، وأقبلت فرقة أخرى على عمارة القصور في تلك المدينة والاشتغال بطيباتها ولذاتها ونزهها، وحاربوا العازمين على النقلة وقالوا: لا ندعكم تأخذون من متاعنا شيئاً فإن شاركتمونا في عمارة المدينة واستيطانها وعيشنا فيها وإلا لم نمكنكم من النقلة ولا من شيء من المتاع، فوقعت الحرب بينهم فقاتلوا السائرين، فعمدوا إلى أكل أموالهم وأهلهم وما نقموا منهم إلا بسيرهم إلى دار الملك وإجابة داعيه، والرغبة عن تلك الدار متى أمرهم بتركها، وأقبلت فرقة أخرى على التنزه والبطالة والراحة والدعة، وقالوا لا نتعب أنفسنا في عمارتها ولا ننقل منها، ولا نعارض من أراد النقلة ولا

نحاربهم ولا نعاونهم، وكان للملك فيها قصر فيه حريم له، وقد أحاط عليه سوراً وأقام عليه حرساً، ومنع أهل المدينة من قربانه وطاف به القاعدون فلم يجدوا فيه باباً يدخلون منه، فغدوا على جدرانه فنقبوها ووصلوا إلى حريمه فأفسدوهم، ونالوا منهم ما أسخط الملك وأغضبه وشق عليه، ولم يقتصروا على ذلك حتى دعوا غيرهم إلى إفساد حريمه والنيل منهم، فبينما هم على تلك الحال وإذا بالنفير قد صاح فيهم كلهم فلم يمكن أحد منهم من التخلف، فحملوا على تلك الحال وأحضروا بين يدي الملك فاستعرضهم واحداً واحداً، وعرضت بضائعهم وما قَدِمُوا به من تلك المدينة عليه، فقبل منها ما يصلح له وأعاض أربابه أضعاف أضعاف قيمته، وأنزلهم منازلهم من قربه، وردّ منها ما لا يصلح له، وضرب به وجوه أصحابه، وقابل من نقب حماه وأفسد حريمه بما يقابل به المفسدون، فسألوا الرجعة إلى المدينة ليعمروا قصره ويحفظوا حريمه، ويقدموا عليه من البضائع بمثل ما قدم به التجار، فقال هيهات قد خربت المدينة خراباً لا تعمر بعده أبداً، وليس بعدها إلا المدينة التي لا تخرب أبداً.

فصل: وقد مثّلت الدنيا بمنام والعيش فيها بالحلم والموت باليقظة، ومثلت بمزرعة والعمل فيها بالبذور والحصاد يوم المعاد، ومثلت بدار لها بابان باب يدخل منه الناس وباب يخرجون منه، ومثلت بحيّة ناعمة الملمس حسنة اللون وضَرْبَتُهَا الموت، ومثلت بطعام مسموم لذيذ الطعم طيب الرائحة، من تناول منه بقدر حاجته كان فيه شفاؤه ومن زاد على حاجته كان فيه حتفه، ومثلت بالطعام في المعدة إذا أخذت الأعضاء منه حاجتها فحبسه قاتل أو مؤذ، ولا راحة لصاحبه إلا في خروجه؛ كما أشار إليه النبي ﷺ في آكلة الخضر وقد تقدم، ومثلت بامرأة من أقبح النساء قد انتقبت على عينين فتنت بهما الناس، وهي تدعو الناس إلى منزلها، فإذا أجابوها كشفت لهم عن منظرها وذبحتهم بسكاكينها وأَلْقَتْهُم في الحفر، وقد سلطت على عشاقها تفعل بهم ذلك قديماً وحديثاً.

والعجب أن عشّاقها يرون إخوانهم صرعى قد حلَّت بهم الآفات، وهم ينافسون في مصارعهم ﴿وسكنتُم في مساكنِ الذين ظَلموا أنفسَهم وتبيَّنَ لكم كيف فعلَنا بهم وضربْنَا لكم الأمثالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، ويكفي في تمثيلها ما مثَّلهَا الله سبحانه في كتابه فهو المثل المنطبق عليها.

قالوا: وإذا كان هذا شأنها فالتقلل منها والزهد فيها خير من الاستكثار منها والرغبة فيها. قالوا: ومن المعلوم أنه لا تجتمع الرغبة فيها مع الرغبة في الله والدار الآخرة أبداً، ولا تسكن هاتان الرغبتان في مكان واحد إلا وطردت إحداهما الأخرى واستبدت بالمسكن، ولا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً. قالوا: ويكفي أن رسول الله ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوزها، ولو أخذها لكان أشكر خلق الله بها ولم تنقصه مما له عند الله شيئاً فاختار جوع يوم وشبع يوم، ومات ودرعه مرهونة على طعام لأهله، كما تقدم ذكره.

قالوا: وقد انقسم الناس بعد رسول الله ﷺ أربعة أقسام: قسم لم يريدوا الدنيا ولم تردهم؛ كالصديق ومن سلك سبيله. وقسم أرادتهم الدنيا ولم يريدوها؛ كعمر بن الخطاب ومن سلك سبيله. وقسم أرادوا الدنيا وأرادتهم، كخلفاء بني أمية ومن سلك سبيلهم، حاشا عمر بن عبد العزيز فإنها أرادته ولم يردها. وقسم أرادوها ولم تردهم كمن أفقر الله منها يده، وأسكنها في قلبه وامتحنه بجمعها، ولا يخفى أن خير الأقسام القسم الأول، والثاني إنما فضل لأنه لم يردها فالتحق بالأول.

قالوا: وقد سأل رجل رسول الله ﷺ أن يدله على عمل إذا فعله أحبه الله، وأحبه الناس، فقال له: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس». فلو كان الغنى أفضل لدله عليه، قالوا: وقد شرع الله سبحانه قتال الكفار وشرع الكف عن الرهبان لاعتزالهم عن الدنيا وزهدهم فيها، فمضت السنة بأن لا يقاتلوا ولا يضرب عليهم جزية، هذا وهم أعداؤه وأعداء رسله ودينه، فعلم أن الزهد فيها عند الله

بمكان. قالوا: وكذلك استقرت حكمته في شرعه على أن عقوبة الواجد أعظم من عقوبة الفاقد، فهذا الزاني المحصن عقوبته الرجم، وعقوبة من لم يحصن الجلد والتغريب، وهكذا يكون ثواب الفاقد أعظم من ثواب الواجد.

قالوا: وكيف يستوي عند الله سبحانه ذلة الفقر وكسرته، وخضوعه وتجرع مرارته، وتحمل أعبائه ومشاقه، وعزة الغنى ولذته وصولته، والتمتع بلذاته ومباشرة حلاوته، فبعين الله ما يتحمل الفقراء من مرارة فقرهم وصبرهم ورضاهم به عن الله ربهم تبارك وتعالى، وأين أجر مشقة المجاهدين، إلى أجر عبادة القاعدين في الأمن والدعة والراحة.

قالوا: وكيف يستوي أمران: أحدهما حفَّت به الجنة، والثاني حفَّت به النار، فإن أصل الشهوات من قبل المال، وأصل المكاره من قبل الفقر، قالوا: والفقير لا ينفك في خصاصة من مضض الفقر والجوع والعري والحاجة وآلام الفقر، وكل واحد منها يكفر ما يقاومه من السيئات، وذلك زيادة عَلَىٰ أجره بأعمال البر، فقد شارك الأغنياء بأعمال البر، وامتاز عنهم بما يكفر سيئاته ـ وما امتازوا به عليه من الإنفاق والصدقة والنفع المتعدي فله سبيل إلى لحاقهم فيه، وله مثل أجورهم، وهو أن يعلم الله من نيته أنه لو أوتي مثل ما أوتوه لفعل كما يفعلون، فيقول لو أن لي مالاً لعملت بأعمالهم فهو بنيته وأجرهما سواء، كما أخبر به الصادق المصدوق في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري.

قالوا: والفقر في الدنيا بمنزلة المسجون إذ هو ممنوع عن الوصول إلى شهواته وملاذها، والغني متخلص من هذا السجن، وقد قال النبي ﷺ: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فالغني إن لم يسجن نَفْسَه عن دواعي الغنى وطغيانه، وأرسلها في ميادين شهواتها كانت الدنيا جنة له، فإنما نال الفضل بتشبهه بالفقير الذي هو في سجن فقره.

قالوا: وقد ذم الله ورسوله من عجلت له طيباته في الحياة الدنيا،

وإنه لحري أن يكون عوضاً عن طيبات الآخرة أو منقصة لها ولا بد كما تقدم بيانه، بخلاف من استكمل طيباته في الآخرة لما منع منها في الدنيا، وأُتي رسول الله ﷺ بسويق لوز فأبى أن يشربه، وقال: «هذا شراب المترفين».

قالوا: وقد سئل الحسن البصري فقيل له: رجلان أحدهما تارك للدنيا، والآخر يكتسبها ويتصدق بها؟ فقال التارك لها أحب إليّ. قالوا: وقد سئل المسيح قبله عن هذه المسألة، عن رجلين مرَّ أحدهما بلبنة ذهب فتخطاها ولم يلتفت إليها، ومرَّ بها الآخر فأخذها وتصدق بها، فقال: الذي لم يلتفت إليها أفضل. ويدل على هذا أن رسول الله ﷺ مر بها ولم يلتفت إليها ولو أخذها لأنفقها في سبيل الله.

قالوا: والفقير الفقيه في فقره يمكنه لحاق الغني في جميع ما ناله بغناه بنيته وقوله، فيساويه في أجره ويتميز عنه بعدم الحساب لِعَدَمِ المال، فساواه بثوابه، وتخلص من حسابه، كما تميز عنه بسبقه إلى الجنة بخمسمائة عام وتميز عنه بثواب صبره على ألم الفقر وخصاصته.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبادة بن مسلم حدثني يونس بن خباب عن أبي البحتري الطائي عن أبي كبشة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث أقسم عليهن، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه، فأما الثلاث التي أقسم عليهن: فإنه ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عز وجل بها عزاً، ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله له باب فقر، وأما الذي أحدثكم حديثاً فاحفظوه فإنه قال: إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم فيه لله حقاً، فهذا بأفضل المنازل عند الله، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو يقول: لو كان لي مال عملت فيه بعمل فلان، قال فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يتخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهذا بأخبث

المنازل عند الله، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول: لو كان لي مال لفعلت بفعل فلان، قال فهو بنيته ووزرهما سواء». فلما فضل الغني بفعله ألحق الفقير الصادق بنيته، والغني هناك إنما نقص بتخلفه عن العمل، والفقير إنما نقص بسوء نيته، فلم ينفع الغني غناه مع التخلف، ولا ضر الفقير فقره مع حسن النية، ولا نفعه فقره مع سوء نيته.

قالوا: ففي هذا بيان كاف شاف في المسألة، حاكم بين الفريقين، وبالله التوفيق.

الباب الرابع والعشرون

في ذكر ما احتجت به الأغنياء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار

قالت الأغنياء: لقد أجلبتم علينا أيها الفقراء بخيل الأدلة ورجلها، ونحن نعلم أن عندكم مثلها وأكثر من مثلها، ولكن توسطتم بين التطويل والاختصار، وظننتم أنها حكمت لكم بالفضل دون ذوي اليسار، ونحن نحاكمكم إلى ما حاكمتمونا إليه، ونعرض بضاعتنا على من عرضتم بضاعتكم عليه، نضع أدلتنا وأدلتكم في ميزان الشرع والعقل الذي لا يعزل، فحينئذ يتبين لنا ولكم الفاضل من المفضول، ولكن أخرجوا من بيننا من تشبَّه بالفقراء الصادقين الصابرين، ولبس لباسهم على قلب أحرص الناس على الدنيا وأشحهم عليها، وأبعدهم من الفقر والصبر، من كل مظهر للفقر مبطن للحرص، غافل عن ربه متبع لهواه، مفرط في أمر معاده، قد جعل زي الفقر صناعة، وتحلَّى بما هو أبعد الناس منه بضاعة. أو فقير حاجَه فقرُه اضطراراً لا اختياراً، فزهده زهد إفلاس لا زهد رغبة في الله والدار الآخرة، أو فقير يشكو ربه بلسان قاله وحاله، غير راض عن ربه في فقره، بل إن أعطي رضي وإن منع سخط، شديد اللهف على الدنيا والحسرة عليها، وهو أفقر الناس فيها فهو أرغب شيء فيها، وهي أزهد شيء فيه. وأخرجوا من بيننا ذي الثروة الجموع المنوع المتكاثر بماله

المستأثر به، الذي عض عليه بناجذه، وثنى عليه خاصره، يفرح بزيادته ويأسى على نقصانه.

فقلبه به مشغوف، وهو على تحصيله ملهوف، إن عرض سوق الإنفاق والبذل أعطى قليلاً وأكدى، وإن دُعي إلى الإيثار أمعن في الحرب جداً، وأخلصونا وإخواننا من سباق الطائفتين وسادات الفريقين الذين تسابقوا إلى الله والدار الآخرة بإيمانهم وأحوالهم ونافسوا في القرب منه بأعمالهم وأموالهم، فقلوبهم عاكفة عليه، وهمتهم إلى المسابقة إليه، ينظر غنيهم إلى فقيرهم فإذا رآه قد سبقه إلى عمل صالح شمَّر إلى اللحاق به، وينظر فقيرهم إلى غنيهم فإذا رآه قد فاته بإنفاق في طاعة الله أنفق هو من أعماله وأقواله وصبره وزهده نظير ذلك أو أكثر منه، فهؤلاء إخواننا الذين تكلم الناس في التفضيل بينهم وأيهم أعلى درجة، وأما أولئك فإنما ينظر أيهم تحت الآخر في العذاب وأسفل منه والله المستعان.

إذا عرف هذا فقد مدح الله سبحانه في كتابه أعمالاً وأثنى على أصحابها، ولا تحصل إلا بالغنى؛ كالزكاة والإنفاق في وجوه البر والجهاد في سبيل الله بالمال وتجهيز الغزاة وإعانة المحاويج، وفك الرقاب، والإطعام في زمن المسغبة.

وأين يقع صبر الفقير من فرحة الملهوف المضطر المشرف على الهلاك إذا أعانه الغني ونصره على فقره ومخمصته، وأين يقع صبره من نفع الغني بماله في نصرة دين الله وإعلاء كلمته وكسر أعدائه.

وأين يقع صبر أبي ذر على فقره إلى شكر الصديق به وشرائه المعذَّبين في الله وإعتاقهم وإنفاقه على نصرة الإسلام حين قال النبي ﷺ: «ما نفعني مال أحد، ما نفعني مال أبي بكر». وأين يقع صبر أهل الصفة من إنفاق عثمان بن عفان تلك النفقات العظيمة التي قال له رسول الله ﷺ في بعضها: «ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم، ثم قال: غفر الله لك يا عثمان ما أسررتَ وما أعلنتَ وما أخفيت وما أبديت». أو كما قال.

وإذا تأملتم القرآن وجدتم الثناء فيه على المنفقين أضعاف الثناء على الفقراء الصابرين، وقد شهد رسول الله ﷺ بأن اليد العليا خير من اليد السفلى، وفسَّر اليد العليا بالمعطية، والسفلى بالسائلة، وقد عدَّد الله سبحانه على رسوله ﷺ من نعمه أن أغناه بعد فقره، وكان غناه هو الحالة التي نقله إليها، وفقره الحالة التي نقله منها، وهو سبحانه كان ينقله من الشيء إلى ما هو خير منه، وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خيرٌ لكَ من الأُولى﴾ [الضحى: ٤]، إن المراد به الحالتان، أي: كل حالة خير لك مما قبلها، ولهذا أعقبه بقوله: ﴿ولسوفَ يُعطيك ربُّك فترضَى﴾ فهنا يدخل فيه عطاؤه في الدنيا والآخرة.

قالوا: والغنى مع الشكر زيادة فضل ورحمة ﴿والله يختص برحمته من يشاء واللّهُ ذُو الفضلِ العظيم﴾ [الحديد: ٢١]. قالوا: والأغنياء الشاكرون سبب لطاعة الفقراء الصابرين لتقويتهم إياهم بالصدقة عليهم والإحسان عليهم؛ وإعانتهم على طاعتهم فلهم نصيب وافر من أجور الفقراء زيادة إلى نصيبهم من أجر الإنفاق وطاعتهم التي تخصهم، كما في صحيح ابن خزيمة من رواية سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي ﷺ.

وذكر شهر رمضان فقال: «من فطَّر فيه صائماً كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء» فقد حاز الغني الشاكر أجر صيامه ومثل أجر الفقير الذي فطره. قالوا: ولو لم يكن للغني الشاكر إلا فضل الصدقة التي لما تفاخرت الأعمال كان الفخر لها عليهن كما ذَكَرَ النضر بن شميل عن قرة، عن سعيد بن المسيب، أنه حدَّث عن عمر بن الخطاب قال: ذكر أن الأعمال الصالحة تتباهى فتقول الصدقة: أنا أفضلكم، قالوا: والصدقة وقاية بين العبد وبين النار، والمخلص المسرُّ بها مستظل بها يوم القيامة في ظل العرش.

وقد روى عمرو بن الحارث ويزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عتبة بن عامر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الصدقة لتطفىء

على أهلها حر القبور، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته».

وقال يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة يرفعه: «كلُّ امرىء في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس» قال يزيد: وكان أبو الخير لا يأتي عليه يوم إلا تصدق فيه ولو بكعكة أو بصلة.

وفي حديث معاذ عن النبي ﷺ: «والصدقة تطفىء الخطيئة كما يُطفىء الماء النار».

وروى البيهقي من حديث أبي يوسف القاضي عن المختار بن فلفل عن أنس يرفعه «باكروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتخطى الصدقة». وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا تصدق العبد من كسبٍ طيّب ـ ولا يقبل الله إلا طيباً ـ أخذها الله بيمينه فيربيها لأحدهم كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله، حتى تكون مثل الجبل العظيم». وفي لفظ البيهقي في هذا الحديث: «حتى أن التمرة أو اللقمة لتكون أعظم من أُحُدٍ». وقال محمد بن المنكدر: «من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان». وقد روي مرفوعاً من غير وجه.

وإذا كان الله سبحانه قد غفر لمن سقى كلباً على شدة ظمئه، فكيف بمن سقى العطاش، وأشبع الجياع، وكسى العراة من المسلمين. وقد قال رسول الله ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة» فجعل الكلم الطيب عوضاً عن الصدقة لمن لا يقدر عليها. قالوا: وأين لذة الصدقة والإحسان وتفريحها القلب وتقويتها إياه، وما يلقي الله سبحانه للمتصدقين من المحبة والتعظيم في قلوب عباده والدعاء لهم والثناء عليهم، وإدخال المسرات عليهم؛ من أجر الصبر على الفقر، نعم إن له لأجراً عظيماً، لكن الأجر درجات عند الله.

قالوا: وأيضاً فالصدقة والإحسان والإعطاء وصف الرب تعالى، وأحب عباده إليه من اتصف بذلك، كما قال النبي ﷺ: «الخلق عيال الله

فأحب الخلق إليه أنفعهم لعياله». قالوا: وقد ذكر الله سبحانه أصناف السعداء، فبدأ بالمتصدقين أولهم. فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ. وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٨ - ١٩] فهؤلاء أصناف السعداء ومقدموهم المصدقين والمصدقات.

قالوا: وفي الصدقة فوائد ومنافع لا يُحْصِيها إلا الله، فمنها أنها تقي مصارع السوء وتدفع البلاء حتى أنها لتدفع عن الظالم، قال إبراهيم النخعي: وكانوا يرون أن الصدقة تدفع عن الرجل الظلوم وتطفىء الخطيئة وتحفظ المال، وتجلب الرزق وتفرح القلب وتوجب الثقة بالله وحسن الظن به، كما أن البخل سوء الظن بالله، وترغم الشيطان يعني الصدقة وتزكي النفس وتنميها وتحبب العبد إلى الله وإلى خلقه وتستر عليه كُلَّ عيب، كما أن البخل يغطي عليه كل حسنة، وتزيد في العمر وتستجلب أدعية الناس ومحبتهم، وتدفع عن صاحبها عذاب القبر، وتكون عليه ظلاً يوم القيامة، وتشفع له عند الله وتهون عليه شدائد الدنيا والآخرة، وتدعوه إلى سائر أعمال البر فلا تستعصي عليه، وفوائدها ومنافعها أضعاف ذلك.

قالوا: ولو لم يكن في النفع والإحسان إلا أنه صفة الله وهو سبحانه يحب من اتصف بموجب صفاته وآثارها فيحب العليم والجواد والحيي والستّير والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، ويحب العدل والعفو والرحيم والشكور والبر والكريم. فصفته الغنى والجود ويحب الغني الجواد.

قالوا: ويكفي في فضل النفع المتعدي بالمال أن الجزاء عليه من جنس العمل، فمن كَسَا مؤمناً كساه الله من حلل الجنة، ومن أشبع جائعاً أشبعه الله من ثمار الجنة، ومن سقى ظمآناً سقاه الله من شراب الجنة، ومن أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار حتى فرجه بفرجه، ومن يسّر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن نفّس عن مؤمن

كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، قالوا ونحن لا ننكر فضيلة الصبر على الفقر، ولكن أين تقع من هذه الفضائل وقد جعل الله لكل شيء قدراً.

قالوا: وقد جعل رسول الله ﷺ الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر، ومعلوم أنه إذا تعدى شكره إلى الإحسان إلى الغير ازداد درجة أخرى، فإن الشكر يتضاعف إلى ما لا نهاية له بخلاف الصبر فإن له حداً يقف عليه.

وهذا دليل مستقل في المسألة يوضحه أن الشاكر أفضل من الراضي الذي هو أعلى من الصابر، فإذا كان الشاكر أفضل من الراضي الذي هو أفضل من الصبر كان أفضل من الصابر في درجتين.

قالوا: وفي الصحيحين من حديث الزهري عن سالم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين. رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل والنهار». فجعل الغنى مع الإنفاق بمنزلة القرآن مع القيام به، قالوا: وقد صرح في حديث أبي كبشة الأنماري أن صاحب المال إذا عمل في ماله بعلمه، واتقى فيه ربه ووصل به رحمه، وأخرج منه حق الله فهو في أعلى المنازل عند الله، وهذا تصريح في تفضيله. وجعل الفقير الصادق إذا نوى أن يعمل بعمله وقال ذلك بلسانه ثانياً وإنه بنيته وقوله وأجرهما سواء، فإن كلاً منهما نوى خيراً وعمل ما يقدر عليه، فالغني نواه ونفذه بعمله، والفقير العالم نواه ونفذه بلسانه، فاستويا في الأجر من هذه الجهة، ولا يلزم من استوائهما في أصل الأجر استواؤهما في كيفيته وتفاصيله، فإن الأجر على العمل والنية له مزية على الأجر على مجرد النية التي قارنها القول، ومن نوى الحج ولم يكن له مال يحج به وإن أثيب على ذلك فإن ثواب من باشر أعمال الحج مع النية له مزية عليه.

وإذا أردت فهم هذا فتأمل قول النبي ﷺ: «من سأل الله الشهادة

صادقاً من قلبه بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه». ولا ريب أن ما حصل للمقتول في سبيل الله من ثواب الشهادة تزيد كيفيته وصفاته على ما حصل لناوي ذلك إذا مات على فراشه وإن بلغ منزلة الشهيد، فهاهنا أجران: أجر وقرب، فإن استويا في أصل الأجر، لكن الأعمال التي قام بها العامل تقتضي أثراً زائداً وقرباً خاصاً وهو فضل الله يؤتيه من يشاء، وقد قال ﷺ: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال إنه أراد قتل صاحبه»، فاستويا في دخول النار، ولا يلزم استواؤهما في الدرجة ومقدار العذاب، فأعطِ ألفاظَ رسول الله حقها ونزِّلها منازلها يتبين لك المراد.

يوضح هذا أن فقراء المهاجرين شكوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: «يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصّلون كما نصلي ويصومون كما نصوم، ولهم فضول أموال يحجون بها ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون، قال: أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: تسبّحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين. فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» فلو كانوا يلحقون بهم في مقدار الأجر بمجرد النية لقال لهم انووا أن تفعلوا مثل فعلهم فتنالوا مثل أجرهم، فلما أعاضهم عما فاتهم من ثواب الصدقة والعتق والحج والاعتمار بما يحصل نظيره بالذكر علم أن الأغنياء قد فضلوهم بالإنفاق، فلما شاركوهم في الذكر بقيت مزية الإنفاق فشكوا إلى رسول الله أن الامتياز لم يزل، وإنهم قد ساوونا في الذكر كما ساوونا في الصوم والصلاة، فأخبرهم أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فلو كان لهم سبيل إلى مساواتهم من كل وجه بالنية والقول لدلهم عليها.

قالت الفقراء: هذا الحديث حجة لنا إذا فهم على الحقيقة، وذلك أن

معناه أنهم وإن كانوا قد ساووكم في الإيمان والإسلام والصلاة والصيام ثم فضلوكم في الإنفاق، ففي التكبير والتسبيح والتهليل ما يُلْحِقَكُم بدرجتهم، وقد ساويتموهم أيضاً بحسن النيةإذ لو أمكنكم لأنفقتم مثلهم، وفي بعض ألفاظ هذا الحديث: «إن أخذتم به سبقتم من قبلكم ولم يلحقكم من بعدكم». وهذا يدل على أن الأغنياء لا يلحقونهم وإن قالوا مثل قولهم، وقوله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» مَعْنَاهُ أن فضل الله ليس مقصوراً عليكم دونهم، فكما آتاكم الله من فضله بالذكر كذلك يؤتيهم إياه إذا عملوا مثلكم أيضاً، فأنتم فهمتم من الفضل التخصيص فوضعتموه في غير موضعه، وإنما معناه العموم والشمول، وإن فضله عام شامل للأغنياء والفقراء فلا تذهبون به دونهم، فأين في هذا الحديث التفضيل لكم علينا.

قالوا: ويحتمل قوله: «ذلك فضل الله» ثلاثة أمور: أحدها سبقهم لكم في الإنفاق، والثاني مساواتكم لهم في فضيلة الذكر فلم تختصوا به دونهم، والثالث سبقكم لهم إلى الجنة بنصف يوم، وهذا وإن كان لا ذكر له في هذه الرواية فهو مذكور في بعض طرقه. قال البزار في مسنده: حدثنا الوليد بن عمر حدثنا محمد بن الزبرقان حدثنا موسى بن عبيدة عن عبدالله ابن دينار عن ابن عمر قال: اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ ما فضل به أغنياؤهم، فقالوا: يا رسول الله إخواننا صدّقوا تصديقنا، وآمنوا إيماننا، وصاموا صيامنا، ولهم أموالٌ يتصدقون منها ويصلون منها الرحم وينفقونها في سبيل الله، ونحن مساكين لا نَقْدِرُ على ذلك، فقال: ألا أخبركم بشيء إذا أنتم فعلتموه أدركتم مثل فضلهم؟ قولوا: الله أكبر في كل صلاة إحدى عشرة مرة، والحمد لله مثل ذلك، ولا إله إلا الله مثل ذلك، وسبحان الله مثل ذلك تدركون مثل فضلهم ففعلوا فذكروا ذلك للأغنياء ففعلوا مثل ذلك، فرجع الفقراء إلى رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له، فقالوا هؤلاء إخواننا فعلوا مثل ما نقول، فقال: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، يا معشر الفقراء ألا أبشركم أن فقراء المسلمين يدخلون الجنة

قبل أغنيائهم بنصف يوم، وهو خمسمائة عام، وتلا موسى بن عبيدة: ﴿وإنَّ يوماً عندَ ربِّكَ كألْفِ سن مما تَعُدُّون﴾ [الحج: ٤٧].

قالوا: فهذا خبر واحد وكلام متصل، ذكره بشارة لهم عندما ذكروا مساواة الأغنياء لهم في القول المذكور فأشبه أن يرجع الفضل إلى سبق الفقراء للأغنياء وأنهم بهذه البشارة مخصصون، فكان السبق لهم دون غيرهم، وإن ساووهم في القول وساووهم في الإنفاق بالنية؛ كما في حديث أبي كبشة المتقدم وحصلت لهم مزية الفقراء.

قالت الأغنياء: لقد بالغتم في صرف الحديث عن مقصوده إلى جهتكم وهو صريح في تفضيل هذا الحديث لمن أنصف، فإن قوله: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» خرج جواباً للفقراء عن قولهم إن أهل الدثور قد ساووهم في الذكر كما ساووهم في الصلاة والصوم والإيمان، وبقيت مزية الإنفاق، ولم يحصل لهم ما يلحقهم فيها وما علمتنا من الذكر قد لحقونا فيه، فقال لهم حينئذ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» وهذا صريح جداً في مقصوده، فلما انكسر القوم بتحقق السبق بالإنفاق الذي عجزوا عنه أخبرهم بالبشارة بالسبق إلى دخول الجنة بنصف يوم وأن هذا السبق في مقابلة ما فاتكم من فضيلة الغنى والإنفاق، ولكن لا يلزم من ذلك رفعتهم عليهم في المنزلة والدرجة، فهؤلاء السبعون ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب، من الموقوفين للحساب من هو أفضل من أكثرهم وأعلى منه درجة.

قالوا: وقد سمى سبحانه المال خيراً في غير موضع من كتابه، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عليكم إذا حَضَرَ أحدَكُم الموتُ إنْ تركَ خيراً الوصيةُ﴾ [البقرة: ١٨٠] وقوله: ﴿وإنَّه لِحُبِّ الخيرِ لشديد﴾ [العاديات: ٨] وأخبر رسول الله ﷺ أن الخير لا يأتي إلا بالخير كما تقدم وإنما يأتي بالشر معصية الله في الخير لا نَفْسه.

وأعلم الله سبحانه أنه جعل المال قواماً للأنفس وأمر بحفظها، ونهى

أن يأتي السفهاء من النساء والأولاد وغيرهم، ومدحه النبي ﷺ بقوله: «نعم المال الصالح مع المرء الصالح»، وقال سعيد بن المسيب: لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله، يكف به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه، ويعطي حقه.

وقال أبو إسحاق السبيعي: كانوا يرون السعة عوناً على الدين، وقال محمد بن المنكدر، نعم العون على التقى الغنى. وقال سفيان الثوري: المال في زماننا هذا سلاح المؤمن. وقال يوسف بن سباط: ما كان المال في زمان منذ خلقت الدنيا أنفع منه في هذا الزمان، والخير كالخيل، لرجل أجر ولرجل ستر، وعلى رجل وزر.

قالوا: وقد جعل الله سبحانه المال سبباً لحفظ البدن، وحفظه سبباً لحفظ النفس التي هي محل معرفة الله والإيمان به، وتصديق رسله ومحبته والإنابة إليه، فهُو سبب عمارة الدنيا والآخرة، وإنما يذم منه ما استخرج من غير وجهه وصرف في غير حقه، واستعبد صاحبه وملك قلبه وشغله عن الله والدار الآخرة، فيذم منه ما يتوسل به صاحبه إلى المقاصد الفاسدة، أو شغله عن المقاصد المحمودة، فالذم للجاعل لا للمجعول.

قال النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم» فذم عبدهما دونهما.

قال الإمام أحمد: حدثنا صفوان عن يزيد بن ميسرة، قال: كان رجل ممن مضى جمع مالاً فأوعى، ثم أقبل على نفسه وهو في أهله فقال أنْعُم سنين، فأتاه ملك الموت فقرع الباب في صورة مسكين، فخرجوا إليه فقال: ادعوا لي صاحب الدار، فقالوا: يخرج سيدنا إلى مثلك! ثم مكث قليلاً، ثم عاد فقرع الدار وصنع مثل ذلك وقال: أخبروه أني ملك الموت، فلما سمع سيدهم قعد فزعاً وقال: لينوا له الكلام، قالوا: ما تريد غير سيدنا، بارك الله فيك؟ قال: لا، فدخل عليه فقال: قم فأوص ما كنت

موصياً فإني قابض نفسك قبل أن أخرج. قال: فصرخ أهله وبكوا ثم قال: افتحوا الصناديق وافتحوا أوعية المال ففتحوها جميعاً فأقبل على المال يلعنه ويسبه، يقول: لعنت من مال، أنت الذي أنسيتني ربي وشغلتني عن العمل لآخرتي حتى بلغني أجلي؛ فتكلم المال فقال: لا تسبني، ألم تكن وضيعاً في أعين الناس فرفعتك، ألم ير عليك من أثري، وكنت تحضر سدد الملوك والسادة فتدخل ويحضر عباد الله الصالحون فلا يدخلون؟ ألم تكن تخطب بنات الملوك والسادة فتنكح ويخطب عباد الله الصالحون فلا ينكحون؟ ألم تكن تنفقني في سبيل الخبث فلا أتعاصى ولو أنفقتني في سبيل الله لم أتعاص عليك؟ وأنت ألوم مني، إنما خلقت أنا وأنتم يا بني آدم من تراب، فمنطلق ببر ومنطلق بإثم، فهكذا يقول المال فاحذروا.

وفي أثر يقول الله تبارك وتعالى: أموالنا رجعت إلينا، سعد بها من سعد، وشقي بها من شقي.

قالوا: ومن فوائد المال أنه قوام العبادات والطاعات، وبه قام سوق بر الحج والجهاد، وبه حصل الإنفاق الواجب والمستحب، وبه حصلت قربات العتق والوقف وبناء المساجد والقناطر وغيرها، وبه يتوصل إلى النكاح الذي هو أفضل من التخلي لنوافل العبادة، وعليه قام سوق المروءة، وبه ظهرت صفة الجود والسخاء، وبه وقيت الأعراض، وبه اكتسبت الإخوان والأصدقاء، وبه توصل الأبرار إلى الدرجات العلى ومرافقة الذين أنعم الله عليهم، فهو مرقاة يصعد بها إلى أعلى غرف الجنة، ويهبط منها إلى أسفل سافلين، وهو مقيم مجد الماجد، كان بعض السلف يقول: لا مجد إلا بفعال ولا فعال إلا بمال، وكان بعضهم يقول: اللهمّ إني مِنْ عِبادِك الذين لا يصلحهم إلا الغنى، وهو من أسباب رضا الله عن العبد كما كان من أسباب سخطه عليه.

وهؤلاء الثلاثة الذين ابتلاهم الله به: الأبرص والأقرع والأعمى، نال به الأعمى رضا ربه، ونالا به سخطه، والجهاد ذروة سنام العمل، وتارة

يكون بالنفس، وتارة يكون بالمال، وربما كان الجهاد بالمال أنكى وأنفع، وبأي شيء فضل عثمان على عليّ، وعليّ أكثر جهاداً بنفسه وأسبق إسلاماً من عثمان.

وهذا الزبير وعبد الرحمن بن عوف، أفضل من جمهور الصحابة مع الغنى الوافر، وتأثيرُهما في الدين أعظم من تأثير أهل الصفة، وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعته، وأخبر أن ترك الرجل ورثته أغنياء خير له من تركهم فقراء، وأخبر أن صاحب المال لن ينفق نفقة يبتغي بها وجه الله ألا ازداد بها درجة ورفعة، وقد استعاذ رسول الله ﷺ من الفقر وقرنه بالكفر، فقال: اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر فإن الخير نوعان: خير الآخرة والكفر مضاده، وخير الدنيا والفقر مضاده، فالفقر سبب عذاب الدنيا، والكفر سبب عذاب الآخرة، والله سبحانه وتعالى جعل إعطاء الزكاة وظيفة الأغنياء، وأخذها وظيفة الفقراء، وفرق بين اليدين شرعاً وقدراً، وجعل يد المعطي أعلى من الآخذ، وجعل الزكاة أوساخ المال، ولذلك حرمها على أطيب خلقه وعلى آله صيانة لهم وتشريفاً ورفعاً لأقدارهم.

ونحن لا ننكر أن رسول الله ﷺ كان فقيراً ثم أغناه الله، والله فتح عليه وخوَّله ووسّع عليه، وكان يدَّخر لأهله قوت سنة ويعطي العطايا التي لم يعطها أحد غيره، وكان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، ومات عن فدك والنضير وأموال خصه الله بها. وقال تعالى: ﴿ما أفاءَ اللّهُ على رسولِهِ من أهلِ القُرى فلِلّهِ وللرسولِ﴾ [الحشر: ٧] فنزهه ربه سبحانه عن الفقر الذي يسوغ الصدقة، وعوّضه عما يرده عنه بأشرف المال وأحله وأفضله، وهو ما أخذه بظل رمحه وقائم سيفه من أعداء الله الذين كان مال الله بأيديهم ظلماً وعدواناً، فإذا رجع إلى أوليائه وأهل طاعته فاء إليهم ما خُلق لهم، ولكن لم يكن غنى رسول الله ﷺ وملكه من جنس غنى بني الدنيا وأملاكهم، فإن غناهم بالشيء وغناه ﷺ عن الشيء، وهو الغني العالي، وملكهم ملك يتصرفون فيه بحسب إرادتهم، وهو ﷺ إنما يتصرف في ملكه

تصرف العبد الذي لا يتصرف إلا بأمر سيده.

وقد اختلف الفقهاء في الفيء هل كان ملكاً للنبي ﷺ على قولين هما روايتان عن أحمد، والتحقيق أن ملكه له كان نوعاً آخر من الملك، وهو ملك يتصرف فيه بالأمر كما قال ﷺ: «والله لا أعطي أحداً ولا أمنع أحداً، إنما أنا قاسم أضع حيث أُمرت»، ذلك من كمال مرتبة عبوديته، ولأجل ذلك لم يورث فإنه عبد محض من كل وجه لربه عز وجل، والعبد لا مال له فيورث عنه، فجمع الله سبحانه بين أعلى أنواع الغنى وأشرف أنواع الفقر، فكمل له مراتب الكمال فليست إحدى الطائفتين بأحق من الأخرى.

فكان ﷺ في فقره أصبر خلق الله وأشكرهم وكذلك في غناه، والله تعالى جعله قدوة للأغنياء والفقراء، وأي غنى أعظم من غنى من عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض، وعرض عليه أن يجعل له الصفا ذهباً، وخُيِّر بين أن يكون ملكاً نبياً وبين أن يكون عبداً نبياً، فاختار أن يكون عبداً نبياً، ومع هذا فجبيت إليه أموال جزيرة العرب واليمن فأنفقها كلها ولم يستأثر منها بشيء، بل تحمّل عيال المسلمين ودَيْنهم فقال: «من ترك مالاً فلورثته، ومن ترك كلًّا فإليّ وعليّ». فرفع الله سبحانه قدره أن يكون من جملة الفقراء الذين تحل لهم الصدقة، كما نزهه أن يكون من جملة الأغنياء الذين أغناهم بالأموال الموروثة، بل أغناه به عن سواه وأغنى قلبه كل الغنى، ووسَّع عليه غاية السعة فأنفق غاية الإنفاق وأعطى أجلَّ العطايا، ولا استأثر بالمال ولا اتخذ منه عقاراً ولا أرضاً، ولا ترك شاةً ولا بعيراً ولا عبداً ولا أمةً ولا ديناراً ولا درهماً.

فإذا احتج الغني الشاكر بحاله ﷺ لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يفعل فعله، كما أن الفقير الصابر إذا احتج بحاله ﷺ لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يصبر صبره، ويترك الدنيا اختياراً لا اضطراراً فرسول الله وفّى كل مرتبة من مرتبتي الفقر والغنى حقها وعبوديتها، وأيضاً فإن الله سبحانه أغنى به الفقراء فما نالت أمته الغنى إلا به، وأغنى الناس من صار غيره به غنياً.

قال علي بن أبي رباح اللَّخْمي: كنتُ عند مسلمة بن مخلد الأنصاري وهو يومئذ على مصر وعبدالله بن عمرو بن العاص جالس معه، فتمثّل مسلمة ببيت من شعر أبي طالب، فقال لو أن أبا طالب رأى ما نحن فيه اليوم من نعمة الله وكرامته لعلم أن ابن أخيه سيد قد جاء بخير، فقال عبدالله بن عمرو: ويومئذ كان سيداً كريماً قد جاء بخير، فقال مسلمة: ألم يقل الله تعالى: ﴿ألَمْ يجدْكَ يتيماً فآوى، ووجدَكَ ضَالاً فهدَى. ووجدَكَ عائِلاً فأغنى﴾ [الضحى: ٦ ـ ٨] فقال عبدالله بن عمرو: أما اليتيم فقد كان يتيماً من أبويه، وأما العَيْلة فكل ما كان بأيدي العرب إلا القلة، يقول إن العرب كانت كلها مقلة حتى فتح الله عليه وعلى العرب الذين أسلموا ودخلوا في دين الله أفواجاً، ثم توفاه الله قبل أن يتلبس منها بشيء ومضى وتركها، وحذر منها ومن فتنتها، قال وذلك معنى قوله: ﴿ولسوفَ يُعطيك ربُّك فترضى﴾ فلم تكن الدنيا لترضيه وهو لا يرضاها كلها لأمته وهو يحذر منها، وتعرض عليه فيأباها وإنما هو ما يعطيه من الثواب وما يفتح عليه وعلى أمته من ملك كسرى وقيصر ودخول الناس في الإسلام وظهور الدين؛ إذ كان ذلك محبته ورضاه صلوات الله وسلامه عليه.

وروى سفيان الثوري عن الأوزاعي عن إسماعيل بن عبدالله بن عباس عن النبي ﷺ قال: «رأيت ما هو مفتوح بعدي كَفْراً كَفْراً فسرني ذلك، فنزلت: ﴿والضُّحَى واللَّيلِ ـ إلى قوله ـ ولسوفَ يُعطيك ربُّك فترضى﴾ قال: أعطني ألف قصر من لؤلؤ ترابها المسك في كل قصر ما ينبغي له.

قالوا: وما ذكرتم من الزهد في الدنيا والتقلل منها فالزهد لا ينافي الغنى، بل زهد الغني أكمل من زهد الفقير، فإن الغني زهد عن قدرة، والفقير عن عجز وبينهما بعد بعيد، وقد كان رسول الله ﷺ في حال غناه أزهد الخلق، وكذلك إبراهيم الخليل كان كثير المال وهو أزهد الناس في الدنيا.

وقد روى الترمذي في جامعه من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعته، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق بما في يد الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب في ثوابها لو أنها بقيت لك.

وسئل الإمام أحمد عن الرجل يكون معه ألف دينار وهل يكون زاهداً؟ قال: نعم بشرط أن لا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت، وقال بعض السلف: الزاهد من لا يغلب الحلال شكره ولا الحرام صبره، وهذا من أحسن الحدود: حقيقة مركبة من الصبر والشكر فلا يستحق اسم الزاهد من لا يتصف بهما، فمن غلب شكره لما وسع عليه من الحلال، وصبره لما عرض له من الحرام فهو الزاهد على الحقيقة، بخلاف من غلب عليه الحلال شكره والحرام صبره، فكان شكره وصبره مغلوبين فإن هذا ليس بزاهد.

وسمعت شيخ الإسلام يقول: الزهد تركك ما لا ينفعك، والورع تركك ما يضرك. فالزهد فراغ القلب من الدنيا لا فراغ اليدين منها، ويقابله الشح والحرص وهو ثلاثة أقسام: زهد في الحرام، وزهد في الشبهات والمكروهات، وزهد في الفضلات. فالأول فرض، والثاني فضل، والثالث متوسط بينهما بحسب درجة الشبهة، وإن قويت التحق بالأول وإلا فبالثالث، وقد يكون الثالث واجباً بمعنى أنه لا بد منه، وذلك لمن شمر إلى الله والدار الآخرة؛ فزهد الفضيلة يكون ضرورة، فإن إرادة الدنيا قادحة في إرادة الآخرة، ولا يصح للعبد مقام الإرادة حتى يفرد طلبه وإرادته ومطلوبه، فلا ينقسم المطلوب ولا الطلب.

أما توحيده المطلوب أن لا يتعلق طلبه وإرادته بغير الله وما يقرب إليه ويدني منه، وأما توحيده في الطلب أن يستأصل الطلب والإرادة نوازع الشهوات وجواذب الهوى، وتسكن الإرادة في أقطار النفس فتملأها فلا

يدع فيها فضلاً لغير الانجذاب إلى جانب الحق جلّ جلاله فتتمخض الإرادة له، ومتى تمخضت كان الزهد لصاحبها ضرورة، فإنه يفرغه لعمارة وقته وجمع قلبه على ما هو بصدده وقطع مواد طمعه اللاتي هي من أفسد شيء للقلب، بل أصل المعاصي والفساد والفجور كله من الطمع، فالزهد يقطع مواده ويفرغ البال ويملأ القلب، ويستحث الجوارح ويذهب الوحشة التي بين العبد وبين ربه، ويجلب الأنس به ويقوي الرغبة في ثوابه إن ضعف عن الرغبة في قربه والدنو منه وذوق حلاوة معرفته ومحبته، فالزاهد أروح الناس بدناً وقلباً، فإن كان زهده وفراغه من الدنيا قوة له في إرادة الله والدار الآخرة بحيث فرغ قلبه لله وجعل حرصه على التقرب إليه وشحه على وقته أن يضيع منه شيء في غير ما هو أرضى لله وأحب إليه كان من أنعم الناس عيشاً وأقرّهم عيناً وأطيبهم نفساً وأفرحهم قلباً، فإن الرغبة في الدنيا تشتت القلب وتبدد الشمل وتطيل الهم والغم والحزن، فهي عذاب حاضر يؤدي إلى عذاب منتظر أشد منه، وتفوت على العبد من النعم أضعاف ما يروم تحصيله بالرغبة في الدنيا.

قال الإمام أحمد حدثنا الهيثم بن جميل حدثنا ـ يعني ابن مسلم عن إبراهيم ـ يعني ابن ميسرة ـ عن طاووس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، وإن الرغبة في الدنيا تطيل الهم والحزن»، وإنما تحصل الهموم والغموم والأحزان من جهتين: إحداهما الرغبة في الدنيا والحرص عليها، والثاني التقصير في أعمال البر والطاعة.

قال عبدالله بن أحمد: حدثني بيان بن الحكم حدثنا محمد بن حاتم عن بشر بن الحارث قال: حدثنا أبو بكر بن عياش عن ليث عن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قصر العبد بالعمل ابتلاه الله عز وجل بالهم».

وكما أن الرغبة في الدنيا أصل المعاصي الظاهرة فهي أصل معاصي القلب من التسخط والحسد والكبر والفخر والخيلاء والتكاثر، وهذا كله من

امتلاء القلب بها لا من كونها في اليد، وامتلاء القلب بها ينافي الشُّكْرُ، ورأس الشكر تفريغ القلب منها، وامتداد المال كامتداد العمر والجاه، فخيركم في الدنيا من طال عمره وحسن عمله، فهكذا من امتد ماله وكثر به خيره، فَنِعْمَ المرء وماله وجاهه، إما أن يرفعه درجات وإما أن يضعه درجات.

وسر المسألة أن طريق الفقر والتقلل طريق سلامة مع الصبر، وطريق الغنى والسعة في الغالب طريق عطب، فإن اتقى الله في ماله ووصل به رحمه وأخرج منه حق الله؛ وليس مقصوراً على الزكاة، بل من حقه إشباع الجائع، وكسوة العاري وإغاثة الملهوف وإعانة المحتاج والمضطر فطريقه طريق غنيمة وهي فوق السلامة، فمثل صاحب الفقر كمثل مريض قد حبس بمرضه عن أغراضه فهو يثاب على حسن صبره على حبسه.

وأما الغني فخطره عظيم في جمعه وكسبه وصرفه، فإذا سلم كسبه وحسن أخذه من وجهه وصرفه في حقه كان أنفع له، فالفقير كالمتعبد المنقطع عن الناس - والغني المنفق في وجوه الخير كالمعين والمعلم والمجاهد، ولهذا جعله النبي ﷺ قرين الذي آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها، فهو أحد المحسودَيْن اللَّذَيْن لا ثالث لهما، والجهلة يغبطون المنقطع المتخلي المقصور النفع على نفسه ويجعلونه أولى بالحسد من المنفق والعالم المعلم.

فإن قيل: فأيهما أفضل: من يختار الغنى والتصدق والإنفاق في وجوه البر؟ أم من يختار الفقر والتقلل ليبعد عن الفتنة ويَسْلَمَ من الآفة ويرفه قلبه على الاستعداد للآخرة فلا يشغله بالدنيا؟ أم من لا يختار لا هذا ولا ذاك، بل يختار ما اختاره الله له فلا يعين باختياره واحداً من الأمرين؟

قيل: هذا موضع اختلف فيه حال السلف الصالح، فمنهم من اختار المال للجهاد به والإنفاق وصرفه في وجوه البر كعبد الرحمن بن عوف وغيره من مياسير الصحابة، وكان قيس بن سعد يقول: اللهم إني من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغنى، ومنهم من اختار الفقر والتقلل كأبي ذر

وجماعة من الصحابة معه، وهؤلاء نظروا إلى آفات الدنيا وخشوا الفتنة بها، وأولئك نظروا إلى مصالح الإنفاق وثمراته العاجلة والآجلة، والفرقة الثالثة لم تختر شيئاً بل كان اختيارها ما اختاره الله لها، وكذلك اختيار طول البقاء في الدنيا لإقامة دين الله وعبادته، فطائفة اختارته وتمنته، وطائفة أحبت الموت ولقاء الله والراحة من الدنيا، وطائفة ثالثة لم تختر هـذا ولا ذاك، بل اختارت ما يختاره الله لها، وكان اختيارهم سلفاً بما يريده الله دون مراد معين منهم، وهي حال الصديق رضي الله عنه، فإنهم قالوا له في مرض موته: ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال: قد رآني، فقالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: إني فعال لما أريد.

والأولى حال موسى عليه السلام فإنه لما جاء ملك الموت لطمه ففقأ عينه، ولم يكن ذلك حباً منه للدنيا والعيش فيها؛ ولكن لينفذ أوامر ربه ويقيم دينه ويجاهد أعداءه فكأنه قال لملك الموت أنت عبد مأمور، وأنا عبد مأمور، وأنا في تنفيذ أوامر ربي وإقامة دينه، فلما عُرضت عليه الحياة الطويلة وعلم أن الموت بعدها اختار ما اختاره الله له.

وأما نبينا صلوات الله وسلامه عليه فإن ربه أرسل إليه بخير، وكان أعلم الخلق بالله، فعلم أن ربه تبارك وتعالى يحب لقاءه ويختاره له فاختار لقاء الله، ولو علم أن ربه يحب له البقاء في الدنيا لتنفيذ أوامره وإقامة دينه لما اختار غير ذلك، فكان اختياره تابعاً لاختيار ربه عز وجل، فكما أنه لما خيره ربه عز وجل بين أن يكون ملكاً نبياً وبين أن يكون عبداً نبياً، وعلم أن ربه يختار له أن يكون عبداً نبياً اختار ما اختاره الله له، فكان اختياره في جميع أموره تابعاً لاختيار الله له، ولهذا يوم الحديبية احتمل ما احتمل من تلك الحال في ذاك الوقت ووفى هذا المقام حقه، ولم يثبت عليه من كل وجه إلا الصديق، فلم يكن له اختيار في سوى ما اختاره الله له ولأصحابه من تلك الحال التي نقرر الأمر عليها فكان راضياً بها مختاراً لها، شاهداً اختيار ربه لها، وهذه غاية العبودية، فشكر الله له ذلك وجعل شكرانه ما

بشّره به في أول سورة الفتح حتى هنأه الصحابة به وقالوا هنيئاً لك يا رسول الله، وحقّ له أن يهنأ بأعظم ما هُنِّئَ به بشرٌ صلوات الله وسلامه عليه.

فصل: ومما ينبغي أن يعلم أن كل خصلة من خصال الفضل قد أحلَّ الله رسوله ﷺ في أعلاها وخصه بذروة سنامها، فإذا احتجت بحاله فرقة من فرق الأمة التي تعرفت تلك الخصال وتقاسمتها على فضلها على غيرها أمكن الفرقة الأخرى أن تحتج به على فضلها أيضاً، فإذا احتج به الغزاة والمجاهدون على أنهم أفضل الطوائف، احتج به العلماء على مثل ما احتج به أولئك.

وإذا احتج به الزهاد والمتخلفون عن الدنيا على فضلهم، احتج به الداخلون في الدنيا والولاية وسياسة الرعية لإقامة دين الله وتنفيذ أمره.

وإذا احتج به الفقير الصابر، احتج به الغني الشاكر.

وإذا احتج به أهل العبادة على فضل نوافل العبادة وترجيحها، احتج به العارفون على فضل المعرفة.

وإذا احتج به أرباب التواضع والحلم، احتج به أرباب العز والقهر للمبطلين والغلظة عليهم والبطش بهم.

وإذا احتج به أرباب الوقار والهيبة والرزانة احتج به أرباب الخُلُق الحسن والمزاح المباح الذي لا يخرج عن الحق وحسن العشرة للأهل والأصحاب.

وإذا احتج به أصحاب الصدع بالحق والقول به في المشهد والمغيب احتج به أصحاب المداراة والحياء والكرم أن يبادروا الرجل بما يكرهه في وجهه.

وإذا احتج به المتورعون على الورع المحمود، احتج به الميسرون

المسهلون الذين لا يخرجون عن سعة شريعته ويسرها وسهولتها.

وإذا احتج به من صرف عنايته إلى إصلاح دينه وقلبه، احتج به من راعى إصلاح بدنه ومعيشته ودنياه فإنه ﷺ بعث لصلاح الدنيا والدين.

وإذا احتج به من لم يعلق قلبه بالأسباب ولا ركن إليها، احتج به من قام بالأسباب ووضعها مواضعها وأعطاها حقها.

وإذا احتج به من جاع وصبر على الجوع، احتج به من شبع وشكر ربه على الشبع، وإذا احتج به من أخذ بالعفو والصفح والاحتمال، احتج به من انتقم في مواضع الانتقام.

وإذا احتج به من أعطى لله ووالى لله؛ احتج به من منع لله وعادى لله.

وإذا احتج به من لم يدخر شيئاً لغد، احتج به من يدخر لأهله قوت سنة.

وإذا احتج به من يأكل الخشن من القوت والأدم كخبز الشعير والخل، احتج به من يأكل اللذيذ الطيب كالشوي والحلوى والفاكهة والبطيخ ونحوه.

وإذا احتج به من سرد الصوم، احتج به من سرد الفطر فكان يصوم حتى يقال لا يفطر، ويفطر حتى يقال لا يصوم.

وإذا احتج به من رغب عن الطيبات والمشتهيات، احتج به من أحب أطيب ما في الدنيا وهو النساء والطيب.

وإذا احتج به من ألان جانبه وخفض جناحه لنسائه، احتج به من أدبهن وآلمهن وطلق وهجر وخيّرهن.

وإذا احتج به من ترك مباشرة أسباب المعيشة بنفسه، احتج به من باشرها بنفسه فآجر واستأجر وباع واشترى واستسلف وأدان ورهن.

وإذا احتج به من يجتنب النساء بالكلية في الحيض والصيام، احتج به من يباشر امرأته وهي حائض بغير الوطء ومن يقبّل امرأته وهو صائم.

وإذا احتج من رجم أهل المعاصي بالقدر، احتج به من أقام عليهم حدود الله فقطع يَدَ السارق ورجم الزاني وجلد الشارب.

وإذا احتج به من أرباب الحكم بالظاهر، احتج به أرباب السياسة العادلة المبنية على القرائن الظاهرة فإنه حبس في تهمة وعاقب في تهمة.

وأخبر عن نبي الله سليمان أنه عليه السلام حكم بالولد للمرأة بالقرينة الظاهرة مع اعترافها لصاحبتها به، فلم يحكم بالاعتراف الذي ظهر له بطلانه بالقرينة، وترجم أبو عبد الرحمن على الحديث ترجمتين: إحداهما قال: التوسعة للحاكم أن يقول للشيء الذي لا يفعله افعله ليستبين به الحق، ثم قال الحكم بخلاف ما يعترف به المحكوم عليه، إذا تبين للحاكم أن الحق غير ما اعترف به، وكذلك الصحابة عملوا بالقرائن في حياته وبعده، فقال علي رضي الله عنه للمرأة التي حملت كتاب حاطب لتُخرِجنَّ الكتاب أو لأجرِّدنَّكِ، وحَدَّ عمر رضي الله عنه في الزنا بالحَبل، وفي الخمر بالرائحة.

وحكى الله سبحانه عن شاهد يوسف حكاية مقرر غير منكر أنه حكم بقرينة شق القميص من دبر على براءته. وقال ﷺ لابن أبي الحقيق وقد زعم أن النفقة أذهبت كنز حيي بن أخطب: «العهد قريب والمال أكثر من ذلك» فاعتبر قرينتين دالتين على بقاء المال وعاقبه حتى أقر به، وجوّز لأولياء القتيل أن يحلفوا على رجل أنه قتله ويقتلونه به بناء على القرائن المرجحة صدقهم، وشرع الله سبحانه رجم المرأة إذا شهد عليها زوجها في اللعان وأبت أن تلاعن للقرينة الظاهرة على صدقه.

وشريعته ﷺ طافحة بذلك لمن تأملها، فالحكم بالقرائن الظاهرة من نفس شريعته وما جاء به فهو حجة لقضاة الحق وولاة العدل، كما أنه حجة على قضاة السوء وولاة الجور والله المستعان.

والمقصود بهذا الفصل أنه ليس الفقراء الصابرون بأحق به ﷺ من الأغنياء الشاكرين، وأحق الناس به أعلمهم بسنته وأتبعهم لها، وبالله التوفيق.

الباب الخامس والعشرون

في بيان الأمور المضادة للصبر والمنافية له والقادحة فيه

لما كان الصبر حبس اللسان عن الشكوى إلى غير الله والقلب عن التسخط والجوارح عن اللطم وشق الثياب ونحوها كان ما يضاده واقعاً على هذه الجملة، فمنه الشكوى إلى المخلوق، فإذا شكى العبد ربه إلى مخلوق مثله فقد شكى من يرحمه إلى من لا يرحمه، ولا تضاده الشكوى إلى الله كما تقدم في شكاية يعقوب إلى الله مع قوله فصبر جميل. وأما إخبار المخلوق بالحال فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته والتوصل إلى زوال ضرورة لم يقدح ذلك في الصبر، كإخبار المريض للطبيب بشكايته، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحاله، وإخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فرجه على يديه، وقد كان النبي ﷺ إذا دخل على المريض يسأله عن حاله ويقول كيف نجدك؟ وهذا استخبار منه واستعلام بحاله.

وأما الأنين فهل يقدح في الصبر؛ فيه روايتان عن الإمام أحمد، قال أبو الحسين: أصحهما الكراهة؛ لما روي عن طاووس أنه كان يكره الأنين في المرض. وقال مجاهد: كل شيء يكتب على ابن آدم مما يتكلم حتى أنينه في مرضه قال هؤلاء: وإن الأنين شكوى بلسان الحال ينافي الصبر.

وقال عبدالله ابن الإمام أحمد: قال لي أبي في مرضه الذي توفي فيه: أخرج إليّ كتاب عبدالله بن إدريس فأخرجت الكتاب، فقال أخرج أحاديث ليث بن أبي سليم، فأخرجت أحاديث ليث، فقال: اقرأ عليّ أحاديث ليث، قال: قلت لطلحة أن طاووس كان يكره الأنين في المرض فَمَا سُمع له أنينٌ حتى مات، فما سمعت أبي أنّ في مرضه إلى أن توفي.

والرواية الثانية أنه لا يكره ولا يقدح في الصبر، قال بكر بن محمد عن أبيه: سئل أحمد عن المريض يشكو ما يجد من الوجع، فقال تعرف فيه شيئاً عن رسول الله ﷺ؟ قال نعم، حديث عائشة وارأساه وجعل يستحسنه.

وقال المروذي: دخلت على أبي عبدالله وهو مريض فسألته، فتغرغرت عَيْنَاهُ وجعل يخبرني ما مرّ به في ليلته من العلّة.

والتحقيق أن الأنين على قسمين: أنين شكوى فيكره، وأنين استراحة وتفريج فلا يكره، والله أعلم.

وقد روي في أثر: أن المريض إذا بدأ بحمد الله ثم أخبر بحاله لم يكن شكوى، وقال شقيق البلخي: من شكا من مصيبة نزلت به إلى غير الله لم يجد في قلبه حلاوة لطاعة الله أبداً.

فصل: والشكوى نوعان: شكوى بلسان القال وشكوى بلسان الحال، ولعلها أعظمها، ولهذا أمر النبي ﷺ من أنعم عليه أن يظهر نعمة الله عليه، وأعظم من ذلك من يشتكي ربه وهو بخير، فهذا أمقت الخلق عند ربه.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبدالله بن يزيد حدثنا كهمس عن عبدالله ابن شقيق قال: قال كعب الأحبار: إن من حسن العمل سبحة الحديث ومن شر العمل التحذيف.

قيل لعبدالله: ما سبحة الحديث؟ قال: سبحان الله يحمده في خلال الحديث، قيل: فما التحذيف؟ قال: يصبح الناس بخير فيسألون فيزعمون أنهم بشر.

فصل: ومما ينافي الصبر شق الثياب عند المصيبة ولطم الوجه والضرب بإحدى اليدين على الأخرى، وحلق الشعر والدعاء بالويل، ولهذا برىء النبي ﷺ ممن صلق وحلق وخرق: صلق رفع صوته عند المصيبة،

وحلق رأسه وشق ثيابه ولا ينافيه البكاء والحزن قال الله تعالى عن يعقوب: ﴿وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ [يوسف: ٨٤] قال قتادة: كظيم على الحزن فلم يقل إلا خيراً.

وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «ما كان من العين ومن القلب فمن الله والرحمة، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان».

وقال هشيم عن عبد الرحمن بن يحيى عن حسان بن أبي جبلة قال: قال رسول الله ﷺ: «من بث فلم يصبر».

وقال خالد بن أبي عثمان: مات ابن لي فرآني سعيد بن جبير متقنعاً، فقال: إياك والتقنيع فإنه من الاستكانة، وقال بكر بن عبدالله المزني: كان يقال: من الاستكانة الجلوس في البيت بعد المصيبة.

وقال عبيد بن عمير: ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب، ولكن الجزع القول السيء والظن السيء.

وسُئل القاسم بن محمد عن الجزع فقال: القول السيء والظن السيء، ومات ابن لبعض قضاة البصرة فاجتمع إليه العلماء والفقهاء فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره، فأجمعوا أنه إذا ترك شيئاً مما كان يصنعه فقد جزع.

وقال الحسين بن عبد العزيز الحوري: مات ابن لي نفيس، فقلت: لأمه اتقي الله واحتسبيه، واصبري، فقالت: مصيبتي به أعظم من أن أفسدها بالجزع.

وقال عبدالله بن المبارك: أتى رجل يزيد بن يزيد وهو يصلي وابنه في الموت فقال ابنك يقضي وأنت تصلي؟ فقال إن الرجل إذا كان له عمل يعمله فتركه يوماً واحداً كان ذلك خللاً في عمله.

وقال ثابت: أصيب عبدالله بن مطرف بمصيبة فرأيته أحسن شيء شارعة وأطيبه ريحاً فذكرت له ما رأيت فقال: تأمرني يا أبا محمد أن أستكين للشيطان وأريه أنه قد أصابني سوء، والله يا أبا محمد لو كانت لي الدنيا كلها ثم أخذها مني ثم سقاني شربة يوم القيامة ما رأيتها ثمناً لتلك الشربة.

ومما يقدح في الصبر إظهار المصيبة والتحدث بها، وكتمانها رأس الصبر. وقال الحسن بن الصباح في مسنده حدثنا خلف بن تميم حدثنا زافر ابن سليمان عن عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من البر كتمان المصائب والأمراض والصدقة». وذكر أنه من بث الصبر فلم يصبر.

ورُوي من وجه آخر عن الحسن يرفعه: من البر كتمان المصائب وما صبر من بثّ، ولما نزل في إحدى عيني عطاء الماء مكث عشرين سنة لا يعلم به أهله حتى جاء ابنه يوماً من قبل عينيه فعلم أن الشيخ قد أصيب.

ودخل رجل على داود الطائي في فراشه فرآه يزحف، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال: مه، لا تعلم بهذا أحداً، وقد أقعد قبل ذلك أربعة أشهر لا يعلم بذلك أحد، وقال مغيرة شكا الأحنف إلى عمه وجع ضرسه فكرر ذلك عليه فقال ما تكرر علي! لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة فما شكوتها إلى أحد.

فصل: ويضاد الصبر الهلع وهو الجزع عند ورود المصيبة والمنع عند ورود النعمة قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسانَ خُلِقَ هَلُوعاً، إذا مَسَّهُ الشرُّ جَزوعاً، وإذا مسَّهُ الخيرُ مَنوعاً﴾ [المعارج: ١٩] وهذا تفسير الهلوع.

قال الجوهري: الهلع أفحش الجزع، وقد هلِع بالكسر فهو هلِع وهلوع.

وفي الحديث: «شر ما في العبد شح هالع، وجبن خالع».

قلت هنا أمران: أمر لفظي وأمر معنوي، فأما اللفظي فإنه وصف الشح بكونه هالعاً، والهالع صاحبه، وأكثر ما يسمى هلوعاً، ولا يقال هالع له، فإنه لا يتعدى؛ ففيه وجهان:

أحدهما: أنه على النسب كقولهم: ليل نائم، وسر كاتم، ونهار صائم ونوم عاصف، كله عند سيبويه على النسب، أي ذو كذا كما قالوا: تامرٌ ولابنٌ.

والثاني: أن اللفظة غيرت عن بابها للازدواج مع خالع وله نظير.

وأما المعنوي: فإن الشح والجبن أردى صفتين في العبد؛ ولا سيما إذا كان شحه هالعاً، أي مُلْقٍ له في الهلع؛ وجبنه خالعاً؛ أي قد خلع قلبه من مكانه، فلا سماحة ولا شجاعة ولا نفع بماله ولا ببدنه، كما يقال: لا طعنة ولا جفنة؛ ولا يطرد ولا يشرد، بل قد قمعه وصغره وحقره ودسَّاه الشح والخوف والطمع والفزع، وإذا أردت معرفة الهلوع فهو الذي إذا أصابه الجوع مثلاً أَظْهَرَ الاستجاعة وأسرع بها، وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها، وإذا أصابه القهر أظهر الاستطامة والاستكانة وباء بها سريعاً؛ وإذا أصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكاية، وإذا بدا له مأخذ طمع طار إليه سريعاً، وإذَا ظفر به أحلّه من نفسه محل الروح فلا احتمال ولا أفضـــال، وهذا كله من صغر النفس ودناءتها، وتدسيسها في البدن وإخفائها وتحقيرها والله المستعان.

الباب السادس والعشرون

في بيان دخول الصبر والشكر في صفات الرب جل جلاله وتسميته بالصبور والشكور، ولو لم يكن الصبر والشكر من الفضيلة إلّا ذلك لكفى به

أما الصبر فقد أطلقه عليه أعرف الخلق به وأعظمهم تنزيهاً له بصيغة المبالغة، ففي الصحيحين من حديث الأعمش عن سعيد بن جبير عن أبي عبد الرحمن السلمي عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «ما أحدٌ أصبر على

أذى سمعه من الله عز وجل، يدعون له ولداً وهو يعافيهم ويرزقهم».

وفي أسمائه الحسنى الصبور، وهو من أمثلة المبالغة، أبلغ من الصابر والصبّار. وصبره تعالى يفارق صبر المخلوق ولا يماثله من وجوه متعددة، منها أنه عن قدرة تامة، ومنها أنه لا يخاف الغوث، والعبد إنما يستعجل الخوف الغوث. ومنها أنه لا يلحقه بصبره ألم ولا حزن ولا نقص بوجه ما، وظهور أثر الاسم في العالم مشهود بالعيان كظهور اسمه الحليم، والفرق بين الصبر والحلم أن الصبر ثمرة الحلم وموجبه، فعلى قدر حلم العبد يكون صبره، فالحلم في صفات الرب تعالى أوسع من الصبر، ولهذا جاء اسمه الحليم في القرآن في غير موضع ولسعته يقرنه سبحانه باسم العليم كقوله: وكان الله عليماً حليماً، والله عليم حليم.

وفي أثر: أن حملة العرش أربعة: اثنان يقولان سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك؛ فإن المخلوق يحلم عن جهل ويعفو عن عجز، والرب تعالى يحلم مع كمال علمه، ويعفو مع تمام قدرته وما أضيف شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم ومن عفو إلى اقتدار، ولهذا كان في دعاء الكرب وصفه سبحانه بالحلم مع العظمة، وكونه حليماً من لوازم ذاته سبحانه.

وأما صبره سبحانه فمتعلق بكفر العباد وشركهم ومسبتهم له سبحانه، وأنواع معاصيهم وفجورهم، فلا يزعجه ذلك كله إلى تعجيل العقوبة، بل يصبر على عبده ويمهله ويستصلحه ويرفق به ويحلم عنه، حتى إذا لم يبق فيه موضع للصنيعة ولا يصلح على الإمهال والرفق والحلم ولا ينيب إلى ربه ويدخل عليه، لا من باب الإحسان والنعم، ولا من باب البلاء والنقم أخذه أخذ عزيز مقتدر بعد غاية الأعذار إليه وبذل النصيحة له ودعائه إليه من كل باب، وهذا كُلّه من موجبات صفة حلمه وهي صفة ذاتية له لا تزول.

وأما الصبر فإذا زال متعلقه كان كسائر الأفعال التي يوجد وجود الحكمة وتزول بزوالها، فتأمله فإنه فرق لطيف ما عثرت الحذّاق بعشره وقلّ من تنبه له ونبّه عليه وأشكل على كثير منهم هذا الاسم، وقالوا: لم يأت في القرآن فأعرضوا عن الاشتغال به صفحاً، ثم اشتغلوا بالكلام في صبر العبد وأقسامه، ولو أنهم أعطوا هذا الاسم حقه لعلموا أن الرب تعالى أحق به من جميع الخلق، كما هو أحق باسم العليم والرحيم والقدير والسميع والبصير والحي وسائر أسمائه الحسنى من المخلوقين، وأن التفاوت الذي بين صبره سبحانه وصبرهم كالتفاوت الذي بين حياته وحياتهم وعلمه وعلمهم وسمعه وأسماعهم، وكذا سائر صفاته.

ولما علم ذلك أعرفُ خلقه به قال: لا أحد أصبر على أذىً سمعه من الله، فَعِلْمُ أرباب البصائر بصبره سبحانه كعلمهم برحمته وعفوه وستره، مع أنه صبرٌ مع كمال علم وقدرة وعظمة وعزة، وهو صبر من أعظم مصبور عليه، فإن مقابلة أعظم العظماء وملك الملوك وأكرم الأكرمين، ومَنْ إحسانه فوق كل إحسان بغاية القبح وأعظم الفجور وأفحش الفواحش، ونسبته إلى كل ما لا يليق به والقدح في كماله وأسمائه وصفاته، والإلحاد في آياته وتكذيب رسله عليهم السلام، ومقابلتهم بالسب والشتم والأذى، وتحريق أوليائه وقتلهم وإهانتهم أمر لا يصبر عليه إلا الصبور الذي لا أحد أصبر منه، ولا نسبة لصبر جميع الخلق من أولهم إلى آخرهم إلى صبره سبحانه.

وإذا أردت معرفة صبر الرب تعالى وحلمه والفرق بينهما فتأمل قوله تعالى: ﴿إن الله يُمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحدٍ من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾ [فاطر: ٤١] وقوله: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً، لقد جئتم شيئاً إدّاً، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً، أنْ دَعَوا للرحمن ولداً﴾ [مريم: ٩٠] وقوله: ﴿وإنْ كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ [إبراهيم: ٤٦] على قراءة من فتح اللام.

فأخبر سبحانه أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السموات والأرض، فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر، فبحلمه صبر عن معالجة أعدائه.

وفي الآية إشعار بأن السموات والأرض تهمّ وتستأذن بالزوال لعظم ما يأتي به العباد، فيمسكها بحلمه ومغفرته، وذلك حبس عقوبته عنهم وهو حقيقة صبره تعالى، فالذي عنه الإمساك هو صفة الحلم، والإمساك هو الصبر، وهو حبس العقوبة، ففرق بين حبس العقوبة وبين ما صدر عنه حبسها فتأمله.

وفي مسند الإمام أحمد مرفوعاً: «ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم» وهذا مقتضى الطبيعة لأن كرة الماء تعلو كرة التراب بالطبع، ولكن الله يمسكه بقدرته وحلمه وصبره.

وكذلك حزور الجبال وتفطير السموات، الرب تعالى يحبسها عن ذلك بصبره وحلمه، فإن ما يأتي به الكفار والمشركون والفجّار في مقابلة العظمة والجلال والإكرام يقتضي ذلك، فجعل سبحانه في مقابلة هذه الأسباب أسباباً يحبها ويرضاها ويفرح بها أكمل فرح وأتمه، تقابل تلك الأسباب التي هي سبب زوال العالم وخرابه، فدفعت تلك الأسباب وقاومتها.

وكان هذا من آثار مدافعة رحمته لغضبه وغلبتها له وسبقها إياه، فغلب أثر الرحمة أثر الغضب كما غلبت الرحمة الغضب، ولهذا استعاذ النبي ﷺ بصفة الرضا من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، ثم جمع الأمرين في الذات إذ هما قائمان بها، فقال: «أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك» فإن ما يستعاذ به هو صادر عن مشيئته وخلقه بإذنه وقضائه، فهو الذي أذن في وقوع الأسباب التي يستعاذ منها خلقاً وكوناً، فمنه السبب والمسبب، وهو الذي حرك الأنفس والأبدان وأعطاها قوى التأثير، وهو الذي أوجدها وأعدّها ومدّها وسلّطها على ما شاء، وهو الذي يمسكها إذا شاء ويحول بينها وبين قواها وتأثيرها.

فتأمل ما تحت قوله: «أعوذُ بكَ منك» من محض التوحيد وقطع الالتفات إلى غيره، وتكميل التوكل عليه تعالى والاستعانة به وحده، وإفراده بالخوف والرجاء ودفع الضر وجلب الخير، وهو الذي يمس بالضر بمشيئته، وهو الذي يدفعه بمشيئته وهو المستعاذ بمشيئته من مشيئته، وهو المعيذ من فعله بفعله، وهو الذي سبحانه خلق ما يصبر عليه وما يرضى به، فإذا أغضبه معاصي الخلق وكفرهم وشركهم وظلمهم، أرضاه تسبيح ملائكته وعباده المؤمنين له وحمدهم إياه، وطاعتهم له، فيعيذ رضاه من غضبه.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه، وإن مقدار يوم من أيامكم عنده اثنتا عشرة ساعة، فتعرض عليه أعمالكم بالأمس أول النهار اليوم، فينظر فيها ثلاث ساعات فيطلع منها على ما يكره فيغضبه ذلك، فأول ما يعلم بغضبه حملة العرش يجدونه يثقل عليهم، تسبحه حملة العرش وسرادقات العرش والملائكة المقربون وسائر الملائكة حتى ينفخ جبريل في القرن فلا يبق شيء إلا يسمع، فيسبحون الرحمن ثلاث ساعات حتى يمتلىء الرحمن رحمة فتلك ست ساعات، قال: ثم يؤتى بالأرحام فينظر فيها ثلاث ساعات، فذلك قوله تعالى: ﴿هو الذي يُصَوِّرُكُم في الأرحامِ كيف يَشاء﴾ [آل عمران: ٦]، ﴿ويَهَبُ لمن يشاءُ إناثاً ويَهَبُ لِمَنْ يشاءُ الذكورَ، أو يزوّجَهم ذُكْرَاناً وإناثاً ويجعلُ مَنْ يشاءُ عقيماً﴾ [الشورى: ٤٩] فتلك تسع ساعات، ثم يؤتى بالأرزاق فينظر فيها ثلاث ساعات، فذلك قوله: ﴿يَبْسطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويَقْدِرْ﴾ الرعد: ٢٦] وقوله: ﴿كلَّ يَوْمٍ هُو في شَأن﴾ [الرحمن: ٢٩] قال هذا شأنكم وشأن ربكم. رواه أبو القاسم الطبراني في السنة، وعثمان بن سعيد الدارمي، وشيخ الإسلام الأنصاري، وابن مندة وابن خزيمة وغيرهم.

ولما ذكر سبحانه في سورة الأنعام أعداءه وكفرهم وشركهم وتكذيب

رسله ذكر في أثر ذلك شأن خليله إبراهيم، وما أراه من ملكوت السموات والأرض، وما حاج به قومه في إظهار دين الله وتوحيده، ثم ذكر الأنبياء من ذريته وأنه هداهم وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة، ثم قال: ﴿فإن يكفرْ بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾ [الأنعام: ٨٩].

فأخبر أنه سبحانه كما جعل في الأرض من يكفر به ويجحد توحيده، ويكذب رسله، كذلك جعل فيها من عباده من يؤمن بما كفر به أولئك ويصدق بما كذبوا به، ويحفظ من حرماته ما أضاعوه، وبهذا تماسك العالم العلوي والسفلي، وإلا فلو اتبع الحق أهواء أعدائه لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ولخرب العالم، ولهذا جعل سبحانه من أسباب خراب العالم رفع الأسباب الممسكة له من الأرض، وهي كلامه وبيته ودينه والقائمون به، فلا يبقى لتلك الأسباب المقتضية لخراب العالم أسباب تقاومها وتمانعها. ولما كان اسم الحليم أدخل في الأوصاف واسم الصبور في الأفعال كان الحلم أصل الصبر، فوقع الاستغناء بذكره في القرآن عن اسم الصبور، والله أعلم.

فصل: وأما تسميته سبحانه بالشكور فهو في حديث أبي هريرة، وفي القرآن تسميته شاكراً، قال الله تعالى: ﴿وكانَ اللّهُ شاكراً عليماً﴾ [النساء: ١٤٧]، وتسميته أيضاً شكور.

قال الله تعالى: ﴿واللّهُ شَكُورٌ حَليم﴾ [التغابن: ١٧] وقال تعالى: ﴿إنّ هذا كانَ لكم جزاءً وكان سعيُكُم مَشْكُوراً﴾ [الإنسان: ٢٢] فجمع لهم سبحانه بين الأمرين أن شكر سعيهم وأثابهم عليه، والله تعالى يشكر عبده إذا أحسن طاعته، ويغفر له إذا تاب عليه، فيجمع للعبد بين شكره لإحسانه ومغفرته لإساءته، إنه غفور شكور.

وقد تقدم في الباب العشرين ذكر حقيقة شكر العبد وأسبابه ووجوهه، وأما شكر الرب تعالى فله شأن آخر كشأن صبره، فهو أولى بصفة الشكر من كل شكور، بل هو الشكور على الحقيقة، فإنه يعطي

العبد ويوفّقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقله أن يشكره، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، ويشكر عبده بقوله بأن يثني عليه بين ملائكته وفي ملئه الأعلى، ويلقي له الشكر بين عباده ويشكره بفعله، فإذا ترك له شيئاً أعطاه أفضل منه، وإذا بذل له شيئاً ردّه عليه أضعافاً مضاعفة، وهو الذي وفّقه الترك والبذل وشكَره على هذا وذاك.

ولما عقر نبيه سليمان الخيل غضباً له إذ شغلته عن ذكره، فأراد ألا تشغله مرة أخرى أعاضه عنها متن الريح، ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته، أعاضهم عنها أن ملّكهم الدنيا وفتحها عليهم.

ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكّن له في الأرض يتبوَّأ منها حيث يشاء، ولما بذل الشهداء أبدانهم له حتى مزّقَها أعداؤه شكر لهم ذلك بأن أعاضهم منها طيراً خضراً أقرّ أرواحهم فيها ترد أَنهْارَ الجنة وتأكل من ثمارها إلى يوم البعث، فيردّها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاه، ولما بذل رسله أعراضهم فيه لأعدائهم فنالوا منهم وسبّوهم، أعاضهم من ذلك بأن صلّى عليهم هو وملائكته وجعل لهم أطيب الثناء في سمواته وبين خلقه فأخلصهم بخالصة ذكرى الدار.

ومن شكره سبحانه أنه يجازي عدوه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا، ويخفف به عنه يوم القيامة فلا يضيع عليه ما يعمله من الإحسان وهو من أبغض خلقه إليه، ومن شكره أنه غفر للمرأة البغي بسقيها كلباً كان قد جهده العطش حتى أكل الثرى، وغفر لآخر بتنحيته غصن شوك عن طريق المسلمين.

فهو سبحانه يشكر العبد على إحسانه لنفسه، والمخلوق إنما يشكر من أحسن إليه، وأبلغ من ذلك أنه سبحانه هو الذي أعطى العبد ما يحسن به إلى نفسه، وشكره على قليله بالأضعاف المضاعفة التي لا نسبة لإحسان

العبد إليها، فهو المحسن بإعطاء الإحسان وإعطاء الشكر، فمن أحق باسم الشكور منه سبحانه!.

وتأمل قوله سبحانه: ﴿ما يفعلُ اللّهُ بعذابِكُم إنْ شكرتُم وآمنتُم، وكان اللّهُ شاكراً عليماً﴾ [النساء: ١٤٧] كيف تجد في ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالى يأبى تعذيب عباده بغير جرم كما يأبى إضاعة سعيهم باطلاً، فالشكور لا يضيع أجر محسن، ولا يعذب غير مسيء.

وفي هذا رد لقول من زعم أنه سبحانه يكلفه ما لا يطيقه، ثم يعذبه على ما لا يدخل تحت قدرته، تعالى الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علواً كبيراً، فشكره سبحانه اقتضى أن لا يعذب المؤمن الشكور، ولا يضيع عمله، وذلك من لوازم هذه الصفة، فهو منزّه عن خلاف ذلك كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص التي تنافي كماله وغناه وحمده.

ومن شكره سبحانه أنه يخرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرة من خير ولا يضيع عَلَيْه هذا القدر، ومن شكره سبحانه أن العبد من عباده يقوم له مقاماً يرضيه بين الناس فيشكره له وينوه بذكره ويخبر به ملائكته وعباده المؤمنين، كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام وأثنى به عليه ونوه بذكره بين عباده، وكذلك شكره لصاحب يس مقامه ودعوته إليه، فلا يهلك عليه بين شكره ومغفرته إلا هالك، فإنه سبحانه غفور شكور، يغفر الكثير من الزلل، ويشكر القليل من العمل.

ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر، كما أن أبغض خلقه إليه من عَطَّلها واتصف بضدها، وهذا شأن أسمائه الحسنى أحب خلقه إليه من اتصف بموجبها، وأبغضهم إليه من اتصف بأضدادها، ولهذا يبغض الكفور والظالم والجاهل والقاسي القلب والبخيل والجبان والمهين واللئيم، وهو سبحانه جميل يحب الجمال، عليم يحب العلماء، رحيم يحب الراحمين محسن يحب المحسنين، شكور يحب

الشاكرين، صبور يحب الصابرين، جواد يحب أهل الجود، ستّار يحب أهل الستر، قادر يلوم على العجز، والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، عفو يحب العفو، وتر يحب الوتر، وكل ما يحبه فهو من آثار أسمائه وصفاته وموجبها، و كل ما يبغضه فهو مما يضادها وينافيها.

خاتمة الكتاب

يا من عزم على السفر إلى الله والدار الآخرة، قد رفع لكَ علم فشمر إليه فقد أمكن التشمير، واجعل سيرك بين مطالعة منته، ومشاهدة عيب النفس والعمل والتقصير، فما أبقى مشهد النعمة والذنب للعارف من حسنة يقول هذه منجيتي من عذاب السعير، ما المعول إلا على عفوه ومغفرته فكل أحد إليهما فقير، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي، أنا المذنب المسكين وأنت الرحيم الغفور، ما تساوي أعمالك لو سلمت مما يبطلها أدنى نعمة من نعمه عليك وأنت مرتهن بشكرها من حين أرسل بها إليك، فهل رَعَيْتَها بالله حق رعايتها وهي في تصريفك وطوع يديك، فتعلّق بحبل الرجاء وادخل من باب التوبة والعمل الصالح إنه غفور شكور.

نهج للعبد طريق النجاة وفتح له أبوابها وعرّفه طرق تحصيل السعادة وأعطاه أسبابها، وحذره من وبال معصيته وأشهده على نفسه وعلى غيره شؤمها وعقابها، وقال إن أطعتَ فبفضلي وأنا أشكر، وإن عصيتَ فبقضائي وأنا أغفر، إن ربنا لغفور شكور.

وأزاح عن العبد العلل، وأمره أن يستعيذ به من العجز والكسل، ووعده أن يشكر له القليل من العمل، ويغفر له الكثير من الزلل، إن ربنا لغفور شكور، أعطاه ما يشكر عليه ثم يشكره على إحسانه إلى نفسه لا على إحسانه إليه، ووعده على إحسانه لنفسه أن يحسن جزاءه ويقربه لديه، وأن يغفر له خطاياه إذا تاب منها ولا يفضحه بين يديه إن ربنا لغفور شكور.

وثقت بعفوه هفوات المذنبين فوسعتها، وعكفت بكرمه آمال المحسنين فما

قطع طمعها، وخرقت السبع الطباق دعوات التائبين والسائلين فَسمعها، ووسع الخلائق عفوه ومغفرته ورزقه، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، إن ربنا لغفور شكور.

يجود على عبيده بالنوافل قبل السؤال، ويعطي سائله ومؤمله فوق ما تعلقت به منهم الآمال، ويغفر لمن تاب إليه ولو بلغت ذنوبه عدد الأمواج والحصى والتراب والرمال، إن ربنا لغفور شكور.

أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأفرح بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها، وأشكر للقليل من جميع خلقه، فمن تقرّب إليه بمثقال ذرة من الخير شكرها وحمدها، إن ربنا لغفور شكور، تعرّف إلى عباده بأسمائه وأوصافه، وتحبب إليهم بحلمه وآلائه، ولم تمنعه معاصيهم بأن جاد عليهم بآلائه، ووعد من تاب إليه وأحسن طاعته بمغفرة ذنوبه يوم لقائه، إن ربنا لغفور شكور.

السعادة كلها في طاعته، والأرباح كلها في معاملته، والمحن والبلايا كلها في معصيته ومخالفته، فليس للعبد أنفع من شكره وتوبته، إن ربنا لغفور شكور.

أفاض على خلقه النعمة وكتب على نفسه الرحمة، وضمن الكتاب الذي كتبه، إن رحمته تغلب غضبه إن ربنا لغفور شكور.

يُطاع فَيَشكر وطاعته من توفيقه وفضله، ويُعصى فيحلم ومعصية العبد من ظلمه وجهله، ويتوب إليه فاعل القبيح فيغفر له، حتى كأنه لم يكن قط من أهله، إن ربنا لغفور شكور.

الحسنة عنده بعشر أمثالها أو يضاعفها بلا عدد ولا حسبان، والسيئة عنده بواحدة ومصيرها إلى العفو والغفران، وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات والأرض إلى آخر الزمان، إن ربنا لغفور شكور.

بابه الكريم مناخ الآمال ومحط الأوزار، وسماء عطاه لا تقلع عن الغيث بل هي مدرار، ويمينه ملأى لا تغيضها نفقة سحّاء بالليل والنهار؛ إن ربنا لغفور شكور.

لا يلقَى وصاياه إلا الصابرون، ولا يفوز بعطاياه إلا الشاكرون، ولا يهلك

عليه إلا الهالكون، ولَا يشقى بعذابه إلا المتمردون، إن ربنا لغفور شكور.

فإياك أيها المتمرد أن يأخذك على غرة فإنه غيور، وإذا أقمت على معصيته وهو يمدك بنعمته فاحذره فإنه لم يهملك لكنه صبور، وبشراك أيها التائب بمغفرته ورحمته إنه غفور شكور.

من علم أن الرب شكور تنوّع في معاملته، ومن عرف أنه واسع المغفرة تعلق بأذيال مغفرته، ومن علم أن رحمته سبقت غضبه لم ييأس من رحمته، إن ربنا لغفور شكور.

من تعلق بصفة من صفاته أخذته بيده حتى تدخله عليه، ومن سار إليه بأسمائه الحسنى وصل إليه، ومَنْ أحبَّه أحبَّ أسماءه وصفاته وكانت آثر شيء لديه حياة القلوب في معرفته ومحبته، وكمال الجوارح في التقرب إليه بطاعته، والقيام بخدمته والألسنة بذكره والثناء عليه بأوصاف مدحته، فأهل شكره أهل زيادته، وأهل ذكره أهل مجالسته، وأهل طاعته أهل كرامته، وأهل معصيته لا يقنطهم من رحمته، إن تابوا فهو حبيبهم، وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم، يبتليهم بأنواع المصائب ليكفّر عنهم الخطايا ويطهرهم من المعائب إنه غفور شكور.

والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله حمداً يملأ السموات والأرض وما بينهما وما شاء ربنا من شيء بعد بمجامع حمده كلها، ما علمنا منها وما لم نعلم، على نعمه كلها ما علمنا منها وما لم نعلم، عدد ما حمده الحامدون، وغفل عن ذكره الغافلون وعدد ما جرى به قلمه وأحصاه كتابه وأحاط به علمه.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ورضي الله عن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

فهرس

ترجمة المؤلف ٥
مقدمة المؤلف ٧
معنى الصبر لغة ١٥
حقيقة العبد وكلام الناس فيه ١٦
بيان أسماء الصبر ١٩
الفرق بين الصبر والتصبر والاصطبار والمصابرة ٢٠
انقسام الصبر باعتبار محله ٢٢
انقسام الصبر بحسب مقاومته لجيش الهوى وعجزه عنه ٢٤
انقسام الصبر باعتبار متعلقه ٢٨
انقسام الصبر باعتبار تعلق الأحكام الخمسة به ٣١
تفاوت درجات الصبر ٣٣
انقسام الصبر إلى محمود ومذموم ٤٤
الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام ٥٢
الأسباب التي تعين على الصبر ٥٣
الإنسان لا يستغني عن الصبر في حال من الأحوال ٦٣
بيان أشق الصبر على النفوس ٦٩
ما ورد في الصبر من نصوص الكتاب العزيز ٧١
ما ورد في الصبر من نصوص السنة ٧٦
الآثار الواردة عن الصحابة ومن بعدهم في فضيلة الصبر ٩٤

ذكر أمور تتعلق بالمصيبة من البكاء والندب ١٠٠
الصبر نصف الإيمـان ١٠٨
تنازع الناس في الأفضل من الصبر والشكر ١١١
الحكم بين الفريقين والفصل بين الطائفتين ١٤٧
اختلاف الناس في الغني الشاكر والفقير الصابر ١٧٥
ذكر ما احتجت به الفقراء من الكتاب والسنة ١٨١
ذكر أمثلة تبين حقيقة الدنيا ٢٢٩
ذكر ما احتجت به الأغنياء من الكتاب والسنة ٢٥٠
الأمور المضادة للصبر والمنافية له والقادحة فيه ٢٧١
بيان دخول الصبر والشكر في صفات الرب جل جلاله ٢٧٥
خاتمـة الكتـاب ٢٨٥